د. مولود عشاق

تاريخ المغرب وإشكالية المصادر



2016

د. مولود عشاق

تاريخ المغرب

وإشكالية المصادر

د. مولود عشاق

تاريخ المغرب وإشكالية المصادر

الإيداع القانوني

2016 MO 2614

الردمك

978-9954-567-57-9

مطابع الرباط نت



Av. Hassan II Cité Al Manar n° 6/3 - Rabat
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com
www.imprimerierabat.com

لوحة الغلاف من إنجاز الطفل : محمد عشاق

إهداء

إلى إياد

تقديم

بقلم الدكتور بوجمعة رويان

تكتسي المصادر أهمية بالغة في كتابة التاريخ عامة، وتاريخ المغرب على الخصوص، وعلى الرغم من هذه الأهمية، فإن التعامل مع المصادر بصدد الخوض في موضوع ما يطرح على الباحث العديد من المشاكل المتعلقة بالندرة وصعوبة العثور على المصدر، ناهيك بما يرتبط بمصداقية المادة الواردة بين ثناياه، وإمكانية توظيفها. وقد يطرح مشكل آخر عندما تظن بعض الأيدي عن وعي أو عن غير وعي بقيمة المصدر، ومدى حاجة الباحث إليه فتبقيه في ظلمة الخزائن عرضة لعيث الأرضة ووكف السقوف.

وعندما يكتب الأستاذ مولود عشاق عن تاريخ المغرب وإشكالية المصادر، وهو الذي خبر كثيرا من تلك المصادر عن قرب، وكرع في العديد من ثناياها، سواء في أطروحته لنيل الدكتوراه أو في ما صدر له بعد ذلك من مقالات ودراسات. فإنه يضع بذلك أصبعه على مشكل يؤرق الباحثين ويجعلهم وجها لوجه أمام سؤال جوهري هل يمكن التصديق جملة وتفصيلا بما ورد في المصادر من معطيات؟ وهو سؤال يقتضي الجواب عنه ضرورة الإنكباب على تلك المصادر وتفحصها بخبرة الدارس المدقق المتمعن المدرك لقيمة الكلمات والإصطلاحات وطرق التعبير. كما يتطلب الأمر إخضاع ماورد بين دفتيها من معطيات للمقابلة والنقد. سعيا إلى اكتشاف خط تطور الأحداث. والبحث في تاريخ القوى التي غذت ذلك التطور وأمدته بعناصر الحيوية والإستمرار.

ورب سائل يسأل كيف الإستفادة من مصادر يتفيأ مؤلفوها ظلال الحكام، ويسخرون أقلامهم لذكر المحاسن وطمس المثالب، أين الحقيقة التاريخية وسط ركام من الأمداح المزجلة بالمكاييل الوافية؟ ويرد عليه آخر أين الحقيقة أيضا في سيل طام من الشتم والسباب، وبسط المثالب والنقائص؟.

ولا يجب أن يعزب عن بالنا ونحن نسوق هذا الكلام أن المؤرخ كحاطب ليل، قدره أن يقرأ كل شيء، لهذه الجهة أو تلك، مستنيرا بمقاييس النقد التاريخي متلمسا البحث عن الحقيقة في ما يقع تحت يده من المصادر، همه أن يبعث الأحداث من مرقدها، ويقدمها أقرب إلى الشكل الذي وقعت به.

فإذا أخذنا على سبيل المثال كتاب "روضة النسرين في دولة بني مرين" لابن الأحمر، فإنه على الرغم من إغراقه في وصف سلاطين بني مرين ومعجزات بعضهم يمكن متصفحه من معرفة الحالة السياسية يومئذ، والاغتيالات والتسميم...الخ، وإذا سقنا مثالا آخر هو كتاب "إتحاف أعلام الناس" لابن زيدان، وهو من مؤرخي السلاطين، ألفيناه يعج بالمعلومات التاريخية، ويطفح بالعديد من المعطيات، التي إذا صادفت باحثا حذقا استل منها ما لا يحصى من الفوائد التاريخية.

وتجدر الإشارة إلى أن الحماية الفرنسية، وما وفد في ركابها من علماء ومفكرين على مختلف تخصصاتهم، قد ساهمت بنصيب وافر في إخراج كثير من مصادر تاريخ المغرب التي ظلت ثاوية في زوايا الإهمال إلى زمن غير بعيد، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر "تاريخ الدولة السعدية" لمؤلف مجهول الذي أخرجه جورج

كـولان سـنة 1934، وسلسـلة المصـادر غيـر المنشـورة لتـاريخ المغـرب التـي باشـر إخراجهـا الكونـت هنـري دوكاسـتري، وغيـر ذلـك ممـا لا محيـد عـن الرجـوع إليـه لإنجـاز بحـث حـول تاريخ المغرب.

ختامـا لايسـعنا إلا أن نرحـب بمحاولـة الأسـتاذ مولـود عشـاق هـذه، ونسـندها، ونعتبرهـا لبنـة مهمـة فـي الجـواب عـن بعـض مـا يلـف المصـادر مـن نقـع الغمـوض، كمـا نـرى فـي هـذه المحاولـة تجربـة جـادة فـي طريـق إماطـة اللثـام عـن مصادر تاريخنا وخبايا مظانه.

سلا الجديدة في 20-05-2016

مقدمة

مما لا جدال فيه أن الطفرة النوعية، والكيفية التي يشهدها الغرب في صيرورة البحث التاريخي تمتح ميكانزماتها من التطور الهائل الذي اخترق نتوءات حقل العلوم الإنسانية. فتطورت تبعا لذلك مناهج البحث وأدوات العمل، وتنوعت المجلات المتخصصة، وتعددت التيارات والاتجاهات الفكرية، والاديولوجية حيث أضحى من الصعوبة بمكان احتواء سيولها الجارفة، والقبض على ناصية فروعها الدقيقة، مما ساهم في إثراء قاعدة، الخطاب التاريخي أفقيا وعموديا من خلال خلخلة، واقتحام المؤرخ سراديب فضاءات جديدة كالاهتمام بتاريخ الطقس والموت، والأشجار، والحيوانات وهلم جرا من الاهتمامات التي تصب برمتها في إطار تنويع، وتعميق أساسيات المعرفة حول الإنسان، والمجتمع...الخ، بل يمكن الجزم أن تضاريس الذاكرة الغربية بمشاهدها اليومية، وترسباتها الشعورية واللاشعورية قُتلت بحثا ودرسا وتأويلا، الأمر الذي انبلج عنه في نهاية المطاف "أزمة في الموضوع" حاول تخفيف حدتها، وتلطيف مخاضها بتوجيه الاهتمام نحو دراسة تاريخ الشعوب غير المكتوب والذي لم يكتب بعد، وهي عملية تستمد مرجعيتها الفكرية من الإستراتيجية بعيدة المدى التي توخت بعض المدارس التاريخية – مدرسة الحوليات – بلورتها على ارض الواقع.

فهل البحث التاريخي الغربي – أمام هذا التخصص المفرط، والتخمة النظرية والمنهجية – يقف فعلا على

عتبة الشيخوخة، أم أن الشيخوخة مجرد مخاض لولادة جديدة قد تفرز اتجاها جديدا في أدوات البحث، وطرق التساؤل؟.

سؤال يجرنا بالضرورة إلى استجلاء الميكانزمات المتحكمة في صيرورة واقع البحث التاريخي بالمغرب، وهو واقع يمكن اختزال إحداثياته في الأسئلة الاستفهامية التالية:

* أين التاريخ المغربي، والمؤرخ المغربي من هذه المساهمات الجذرية التي استهدفت تأصيل البحث التاريخي؟

* استفحل في غضون العقود الأخيرة الحديث عن بداية تراكم كمي، و كيفي في مسار البحث التاريخي المغربي، هل لغة الأرقام قمينة بإصدار حكم نهائي وقاطع على واقع البحث التاريخي وآفاقه المستقبلية؟ أم أن لغة الأرقام لا تمثل معيارا حقيقيا وسليما لضبط مسيرته، وحتى ولو سلمنا جدلا أن حجم الكم كبير فهل هذا يعني أن مجمل المرجعيات لها نفس القيمة العلمية، ويحكمها نفس الحس التاريخي؟

* توشح مجمل المرجعيات المنشورة، والغير منشورة عناوينها ب"مساهمة" هل هذا يؤشر موضوعيا أن ملامح. ومعالم الصورة لم تكتمل بعد. وأن تقاليد البحث العلمي لا تزال في منعطف الطريق. وتتقلب بين مسارات البحث عن هوية تاريخية وطنية. بمعنى آخر هل عمر حصيلة الاستقلال غير قادرة على وضع قاطرة البحث التاريخي المغربي على سكته الصحيحة؟

* تطفح افتتاحيات المؤرخين المغاربة بالدعوة الصريحة، والمضمرة إلى "إعادة كتابة تاريخ المغرب" فهل تعني مدلولات، وأبعاد العبارة أن تاريخ المغرب لم يكتب بعد؟ فماذا كتب منه؟ ومن يعيد كتابته، وبناء عناصره إذن؟

* تصب صيحات المؤرخين المغاربة في سياق الدعوة إلى قراءة تاريخ المغرب بعيدا عن الإسقاطات المجانية، والتأويلات الفضفاضة العائمة لدهاقنة المؤسسة الاستعمارية، ما هي طبيعة هذه القراءة؟

هل هي قراءة تتجاوز دوامة الزيف الاديولوجي، وتسعى إلى تكسير وتهديم المسلمات والمطلقات الاستعمارية؟ أم هي قراءة سجينة هذا الإطار المرجعي، ومن ثمة السقوط في فخ المسلمات والمطلقات بوعي أو بدون وعي؟

* يستشف من المحاولات الداعية إلى إعادة كتابة تاريخ المغرب أنها تروم تكوين أو بلورة "مدرسة" وطنية لكتابة التاريخ المغربي، هل حصيلة "التراكم" الحالي يخول إمكانيات الحديث عن مدرسة وطنية أمام خطاب تاريخي لا يزال يعيد إنتاج نفسه قلبا وقالبا؟ أم أن السعي إلى بلورة مدرسة وطنية مجرد أماني غارقة في عمق المستقبليات ليس إلا؟

* يستخلص من محاولات المؤرخين المغاربة تلك الدعوة إلى بناء، وترصيص خطاب تاريخي يتسم بالتنوع، والاختلاف، ويستمد أصوله وآلياته من صميم الواقع المغربي، مع الانفتاح طبعا على المنهجيات الحديثة التي أفرزتها تطور حقول العلوم الإنسانية، هل البناء، والانفتاح يتبلور بمعزل عن تحديث عقلية المجتمع ؟ أو

بكلمة أكثر وضوحا هل عقلية المجتمع تملك من وسائل التحدي والاستجابة ما يؤهلها لترسيخ مرتكزات بديلة في صيرورة الخطاب التاريخي المغربي؟

يجدر بنا بعد استجلاء بعض الميكانزمات المتحكمة في نسيج واقع البحث التاريخي بالمغرب تحديد وضبط مورفولوجية المشاكل التي تكبح جماح مسيرته، وتحول دون انطلاقته، ولو انه من باب المغامرة، والمجازفة الإمساك بكل خيوط المشاكل التي تمثل قطب الرحى في بنية البحث التاريخي المغربي، لذلك فكل ما نود التوصل إليه في حقيقة الأمر مجرد فتح قوسين كبيرين حول أبرز المشاكل التي تطرحها المصادر التقليدية.

لا مراء في أن المصادر التاريخية القديمة تتباين قيمتها الافقية، وتتفاوت أهميتها العمودية، تبعا لطبيعة ومضمون، ونوعية المادة التاريخية التي يستقي منها، ويؤسس عليها المؤرخ فرضيات رواياته، ونسغ بنائه التاريخي.

بيد ان عملية التأسيس والبناء يخضع منطقها الداخلي لمعايير ومقاييس ترتبط ارتباطا عضويا بمسؤولية المؤرخ: فهناك عينة من المؤرخين نقلوا الاخبار عن مجموعة من الرواة والمؤلفين، ولم يذكروا أسماءهم، ولم ينسبوا اليهم كلامهم في كثير من الاحيان(1). ويأتي في مقدمة هؤلاء ابن ابي زرع الفاسي الذي برر ذلك في كتابه روض القرطاس قائلا "فألفت هذا المجموع المقتضب، انتقيت جواهره من كتب التاريخ المعتمد على صحتها، والمرجوعاليها، سوى ماورويته عن أشياخ التاريخ، والحفاظ، والكتاب، وقيدته عن الرواة الثقات الانجاب، وحذفت فيه الاسناد خيفة الاكثار

1- أسطوة تاريخ البطل

تتصدر ظاهرة تاريخ البطل معظم الانتاج التاريخ المغربي، حيث تعطى من خلالها للفرد الأولوية، والجبرية المطلقة، والأثر الحاسم في صيرورة الفعل التاريخي، إذ يتمظهر داخل نسق الحدث التاريخي كحقيقة ثابتة، ومسلمة يقينية بوصفه المركز والعقدة من شبكة العلاقات النشطة، الأمر الذي أضفى على منحنيات المتن المصدري خاصية مغايرة، ومسحة مميزة «عبارة عن سجل منقبي للخلفاء، والوزراء، والأعيان، فالخليفة عند المؤرخ السني هو ظل الله في الأرض، وهو ما يعني أن أحلامه وهلوساته، وأفعاله وتصرفاته تمتح نسغها ومسوغها من العناية والارادة الالهية، كما أنه الشخص الوحيد القادر على صنع التاريخ، والإمام عند الشيعة هو الذات المعصومة من الخطأ، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهو الشخصية الوحيدة المؤهلة لقيادة الإنسانية إلى النور بعد أن هوت»(7).

ولم يقف المتن المصدري عند حدود إحاطة البطل بهالة من القداسة الرمزية، والالهام الروحي، بل تعداه إلى عرض أوصاف دقيقة، وتفاصيل جزئية عن الملامح الجسدية والخطابية، من ذلك مثلا الوصف الذي خص به ابن ابي زرع الفاسي الامير المرابطي يوسف بن تاشفين قائلا : "اسمر اللون نقيه، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، اكحل العينين، اقنا الانف، له وفرة تبلغ شحمة اذنيه، مقرون الحاجبين، جعد الشعر، وكان رحمه الله بطلا نجدا شجاعا حازما مهابا ضابطا لملكه، متفقدا الموالي من رعيته، حافظا لبلاده وثغوره، مواظبا على الجهاد،

مؤيدا منصورا، جوادا كريما سخيا زاهدا في زينة الدنيا، متورعا عادلا صالحا متقشفا على ما فتح الله عليه من الدنيا، لباسه الصوف، وأكله الشعير ولحوم الابل والبانها... ولم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من اعماله على طول ايامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية"(8).

ونفس الوصف خص به عبد الواحد المراكشي الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي الكومي حيث قال "وكان ابيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، معتدل القامة، وضيء الوجه، جهوري الصوت، فصيح الألفاظ، جزل المنطق، وكان محببا إلى النفوس لا يراه احد إلا أحبه بداهة"(9).

إنها تفاصيل، وجزئيات انحشرت، وانطمست في ثنايا تلافيفها حياة الاغلبية الصامة، والمعذبين في الارض، والفئات المنتجة من عامة الناس التي ترد عرضا، وفي سياق الاحداث العامة.

والانكى في الامر أن تلك الاشارات العرضية، والايماءات الشحيحة القابعة وراء السطور، والثاوية بين التفاصيل موسومة بميسم النعوت القدحية، والاوصاف الشائنة، والتهم الشنيعة من قبيل الرعاع، الاوباش، السفلة، اهل الزعارة، وهلم جرا من الاوصاف والنعوت الحاملة لذبيب العداء السافر، والكراهية المقيتة التي تحشرها وتبوبها في خانة "سقط المتاع"، أو غثاء لا يستحق الاهتمام(10).

بيد ان منهجية التاريخ الرسمي ودرجة الصفر في الاجحاف والتحامل والابتسار التي تخللت أطره المرجعية، لتقف على طرفي نقيض مع مظان أخرى ذات

صلة بالتاريخ ككتب الحسبة والجغرافيا، والطبيخ وغير ذلك من المظان التي انفلتت من عقال "الذهنية البلاطية"، واخترقت دهاليز ما يصطلح عليه العلامة ابن خلدون بصانعي وسائل المعاش، هذا مع التأكيد ان بعض الانواع من هذه المصادر الدفينة لم تسلم هي الاخرى من إسار وشراك التأريخ لفئة قليلة من الناس كانت تشكل خاصة المجتمع مثل أعلام السياسة والدين والاداب من سلاطين وأمراء وشرفاء وصلحاء وفقهاء وقضاة وعلماء ... الخ.

2- غلبة اديولوجية السلطة الحاكمة

من نافلة القول التأكيد أن الدول التي تعاقبت على حكم المغرب حرص قادتها وزعماؤها أشد الحرص على تكريس مبدأ التوازنات السياسية بين مختلف أطياف المجتمع بدافع الرغبة في امتلاك الزمن السياسي، واحتكار أنسجة متوالياته، ومن ورائه الزمن الثقافي وما ينـدغم في بوتقته من أجناس وإنتاجات فكرية. ويحتل الانتاج التاريخي في سياق ذلك قطب الرحى، وموقع الصدارة في اهتمامات القادة والزعماء بالنظر لحساسيته السياسية، وفعاليته الاستراتيجية التي تخول من جهة امكانية امتلاك الماضي معرفيا ورمزيا، ومن جهة ثانية امتلاك السلطة اديولوجيا وسياسيا دونما حاجة الى وسائل السلطة المادية بمختلف اشكالها.

ومن أجل أجرأة عملية تملك السلطة، و قوننة أجهزة مفاهيمها، وقوالبها المعرفية تندرج مسألة توظيف

مؤرخين في دواوين بلاطات الملوك، وقصور الامراء، لأن من الحقوق التي كان يخولها الامراء والملوك لانفسهم هو أن تدون أعمالهم ومآثرهم في التواريخ الرسمية، لانهم كانوا يرتاحون لقراءة ما يمجدهم، ويخلد ذكراهم، ولأن ذلك من شأنه أن يرفع منزلتهم لا في نظر شعوبهم فحسب، ولكن في نظر الامم الاجنبية أيضا. لقد كانوا يجزلون العطايا لمن يسجل محاسنهم، ويحبر مفاخرهم، وكان من الطبيعي أن يتزاحم الكتاب على أبواب قصور الحكام ليقدموا لهم نتائج قرائحهم رغبة في الحصول على الصلات أو الوظائف المخزنية(11). فلا غرابة والحالة هذه أن يتستر مؤرخ البلاط على الحقائق كلا أو بعضا، وفي أحسن الاحوال يغدق من الاطراء على المحاسن، ولا يبالي بالمأخذ والمثالب(12).

ونجد في التاريخ المغربي كما في غيره مصنفات، ورسائل تعكس بالملموس انجراف المؤرخ وراء اديولوجية الطبقة الحاكمة التي "يعتقد – صادقا مع نفسه – أنها تمثل وجهة النظر الحقيقية" (13)، بل يتجشم مشاق البحث، والتحري عن الجوانب التي تخدم سياسة الطبقة الحاكمة إلى حد تزييف وتحريف الحقيقة، وهو ما عبر عنه صراحة المؤرخ الرسمي للدولة البويهية أثناء كتابته لتاريخ بني بويه "إذ سئل عما يفعل فقال أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها"(14). وقد أثارت عملية تحريف الحقيقة عن مقاصدها، وأهدافها والتي تصب في بوتقة اديولوجية الطبقة الحاكمة ثائرة مطهر المقدسي الذي حمل بشدة على" المتطفلين على التاريخ، والمشوهين له من أرباب القلانس، وأصحاب المجالس الذين طلبهم العلم لا لله، ولا لأنفسهم، ولكن للتصدر والتقدم فهم يأخذونه من غير مظانه"(15) ثم ندد بتأثير هؤلاء على

الطبقة الشعبية حيث" شحنوا صدورهم بترهات الأباطيل، وضيعوا نفوسهم بالأسمار، والأباطيل، فهم إلى ناعق سراع، وعن كل ذي حق بطاء، وللمتبع متعرضون، وعن الواجب معرضون. المحق فيهم مبطل (...) والمخالف لهم مقهور، والناظر مهجور، والحديث لهم عن جمل طار أشهى إليهم من رواية مروية... فهذه الخطة كانت سبب حرمان العلم وتهجين أهله(...)، وتسهيل القادحين بالصخب والشغب، والشنعة، ورد العيان وجحد البرهان، ويأبى العلم الا ان يضع كنفه أو يخفض جناحه، أو يسفر عن وجهه الا لمتجرد له بكليته، ومتوفر عليه بأبنيته، معان بالقريحة الناقبة، والرؤية الصافية"(16) ."

والجدير بالذكر ان تصفية التاريخ من الشوائب والتشويه، لن يتأتى حسب مطهر بن طاهر الا بتصنيف كتاب مهذب من شوائب التزيد، مصفى من سقاط الغسالات، وخرافات العجائز، وتزاوير القصص، وموضوعات المتهمين من المحدثين(17).

والامر نفسه ينسحب على المؤرخ الشهير البيروني الذي وضع أصبعه على الاسباب الحقيقية التي تتحكم في تزوير و تحريف التاريخ، اذ كتب يقول :"فمن مخبر عن امر كذب يقصد فيهنفسه، فيعظم بني جنسه، ويزرى بخلاف جنسه، وان كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين، ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر، أو يبغضهم لنكر، وهو مقارب الاول، فإن الباعث على فعله من دواعي المحبة والغلبة. ومن مخبر عن شيء كذب متقربا الى خير بدناءة الطبع، او متقيا لشر من فشل او فزع. ومن مخبر عن شيء كذب طباعا،

كأنه محمول عليه، غير متمكن من غيره، وذلك من دواعي الشرارة، وخبث مخابئ الطبيعة. ومن مخبر عن شيء جهلا، و هو المقلد لمخبرين"(18).

بيد ان التستر على الحقائق أو طمسها، أو تلفيفها في قوالب مسكوكة لا يشد عن قاعدته معظم المؤرخين.

فالمؤرخ الموظف والعضو في حاشية الدولة يشعر عن وعي انه لا يكتب التاريخ كما هو، بل كما يريده أو على الاقل يرضى عنه حكام العصر، لذلك يكيل التملق بالمكيال الاوفى بحيث قد يجعل من أشد السلاطين فجورا وبطشا سلطانا مثاليا(19)، وعلى النقيض من ذلك هناك المؤرخ الذي يتصدر تلقائيا لتسجيل مثالب الطاغين من ولاة الامور، والتنديد بمساوئ المستبدين، غير انه من المحقق أنه لم يفعل ذلك لتنوير العامة الأغمار ولكنه فعل لاسترضاء الخاصة الناقمين على ذوي السلطة والمتربصين لهم دائرة السوء(20). وبين هذا وذاك هناك المؤرخ الذي يتعمد نسيان الحقائق أو تحويرها اذا ما رأى ان الضرورة تدعو الى ذلك. وهو من جهة اخرى متيقن انه من السهل على القراء المتيقظين ان يكشفوا ما قصد كتمانه(21).

و كتطبيق لهذا التخريج نسوق نمآذج لمؤرخين مغاربة قدامى تراوحت نتوء كتاباتهم بين الاعتدال والمعارضة والمحاباة.

بالنسبة للانتاجات التي تصنف في خانة التاريخ الرسمي، فالثابت أن كتابها سخروا أقلامهم لكتابة سير وأخبار السلطة الحاكمة، واستأجروا لسانهم لتبرير الايديولوجية السائدة، والسياسة المتبعة، وتعليل الوقائع والأحداث تعليلا يستقيم ورغبات واختيارات

وتوجهات الاجهزة القائمة، أو بلغة أكثر وضوحا وجلاء انتاجات تخصصت في كتابة التاريخ من أعلى، وأهملت عن قصد أو عن غير قصد كتابة التاريخ من أسفل. وتاريخ المغرب بامتداداته، وتعاقبات كياناته وحركاته يحفل بهذا النوع من الانتاجات الطافحة تركيبية ثوابتها وطبقاتها بميولات عقائدية، ونزوعات عاطفية، ومنطلقات برغماتية، وتشيعات مذهبية، وهلم جرا من التسويغات والحمولات المشحونة بذبيب التجني و الافتراء على الحقيقة التاريخية، والامانة العلمية، إرضاء وتزلفا لاصحاب الحل والعقد. فضخمت والحالة هذه من المآثر والمفاخر والمنجزات، وحجبت العيوب والنقائص والمساوئ، وبررت الهزائم والغصص والانكسارات، وهللت للانتصارات برائق الشعر وفائق النثر.

ولاحاجة الى التأكيد أن هذا النوع من التواليف والانتاجات تجافي الصدق والموضوعية والنزاهة، ومن ثمة تستوجب مفاصل أولياتها أن تؤخذ بحذر شديد، ويقظة ابستمولوجية قمينة باماطة اللثام عن مكامن الافتراءات والاضاليل والمغالطات.

وإذا كانت تلك التواليف والانتاجات تعكس التاريخ من أعلى، أو تعبر عن نزوعات ايديولوجية، وأهواء سياسية، وولاءات مذهبية فإن ذلك لا يعني جدليا التبخيس من شأنها، والتشكيك في مادتها، والطعن في نسغها وتسويغاتها التوثيقية والمنهجية، إذ الضرورة العلمية تقتضي الحفر في ثنايا تجاويفها لاستبطان ما بين سطورها وعباراتها وكلماتها من قضايا تمت بصلة للعوالم السفلى، ناهيك عن بنية نسيجها المائرة رحمها

بمادة ثرية وثرة تخول امكانية تكوين رؤية خاصة ومنظور تركيبي في تحليل وتفسير الظواهر التاريخية، وتعليل ملابساتها، وتأويل خلفياتها.

ودون الاسترسال في استقراء الضوابط المتحكمة في هذا اللون من الانتاجات يجدر استعراض عينة منها تختزل تمظهراتها بعض الكيانات السياسية التي تعاقبت على حكم المغرب، مع الاشارة الى احاد منها يكفي:

1- نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان لابن القطان المراكشي (منتصف القرن السابع الهجري)

شكل ابن القطان بنزوعاته المذهبية، وميولاته السياسية علامة فارقة ومفصلية في الاسطوغرافية المغربية، ولا غرو فهو يكيل بمكيال الولاء والعداء، ويعزف على نغمة القدح والمدح غير مكترث بالموضوعية و النزاهة والصدق.

ففي الوجه الاول ينصب نفسه للدود بحماسة جياشة عن مبادئ السلطة الموحدية، والتزلف لأولياء أمرها. ولا عجب فابن القطان حظي بنعمة الخليفة المرتضي، وعمل في كنف بلاطه، وألف جملة من الكتب الحفيلة الجليلة، والدواوين العظيمة منها "نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان"، و"شفاء الغلل في أخبار الانبياء والرسل"، و"الاحكام لبيان آياته عليه السلام"(22)، وغير ذلك من التصانيف التي تفيض فصولها بكل أشكال التحيز والتعصب، وليس أدل على صحة ما نذهب اليه من إقراره في نصوص كاشفة عن

هـــذه الحقيقـــة، إذ ذكـــر أن للمهـــدي بـــن تـــومرت فضـــائل شـــتى، ومكانـــة ســـامية ومـــا يجـــب لـــه مـــن التعزيـــز والتـــوقير، وأن الهجـــرة اليـــه واجبـــة لا يحـــول بينهـــا وبـــين أحـــد مـــن المســـلمين أهـــل ولا ولـــد ولا مـــال، وأن مـــن ســـمع بـــامره وجبـــت عليـــه الهجـــرة اليـــه، ولا عـــذرلـــه بوجـــه مـــن الوجـــوه، ويكفـــر مـــن لـــم يصـــل عليـــه ولـــم يطعـــه..."(23)، أو في إقامـــة الحجـــة والبرهـــان علـــى صـــحة نســـبه العلـــوي، مـــع أنـــه يـــورد فـــي سلســـلة نســـبه أراء مختلفـــة متعارضـــة(24)، هـــذا فضـــلا عـــن توشـــيحه بوشـــاح العصـــمة، ومايـنـــدغم فـــي بوتقتهـــا مـــن خـــوارق وكرامـــات وتنبـــؤات "ومـــن عصـــمه – رضـــى الله تعـــالى عنـــه – منـــع العزيـــزبن منصـــور بـــن الناصـــر بـــن عـــلاء النـــاس بـــن حمـــاد منـــه، وقـــد غاظـــه وأغضـــبه وســـلامته – رضـــي الله تعـــالى عنـــه – مـــن عـــدوه، وهـــو ملـــك بجايـــة، وذلـــك أنـــه – رضـــي الله عنـــه – لمـــا دخـــل بجايـــة لقـــي بهـــا الصـــبيان فـــي زي النســـاء بالضـــفائر والاخـــراس والزينـــة وشواشـــي الخـــز، وألفـــى الارذال قـــد فتنـــوا بـــذلك وانهمكـــوا، فغيـــر المنكـــر جـــده، وازال ذلـــك الـــزي مســـتطاعه (25)، وحتـــى يضـــفي علـــى امامتـــه وعصـــمته مســـوحا شـــرعيا، لـــم يتـــورع مـــن انتحـــال الاحاديـــث النبويـــة وتحريفهـــا مصـــداق ذلـــك مـــا ســـمعه عـــن أبـــي عبـــد الله اللخمـــي قولـــه: "رأيـــت فـــي الخبـــر عـــن خيـــر البشـــر رســـول الله(ص) أنـــه قـــال : خيـــر القـــرون الـــذي أنـــا فيـــه، ثـــم الـــذي يليـــه، ثـــم الـــذي يليـــه، ثـــم الـــذي يليـــه، والاخـــر أشـــق، ولا يقـــوم بـــالحق بعـــد الفتـــرة التـــي تحـــدث فـــي الخلـــق بعـــد هـــذه القـــرون الا المهـــدي والرجـــل القـــائم بـــأمره، ومـــن يليـــه مـــن الخلفـــاء بعـــده رضـــي الله تعـــالى عنهم "(26).

وفـــي الوجـــه الثـــاني تقنـــع صـــاحب نظـــم الجمـــان بقنـــاع تشـــي ملامحـــه وقســـماته بالمقـــت والكراهيـــة لاعـــداء المـــذهب

الموحـدي وخصـوم رجـال دولتـه. ولا غـرو فقـد صـب جـام نزوعاتـه المذهبيـة، وميولاتـه المتحيـزة علـى الحركـة المرابطيـة، وكـال لسـلاطينها وأمرائهـا كـل أصـناف النعـوت الذميمـة، والاوصـاف الجارحـة حتـى أنـه جعلهـم في منزلـة المجسـمين" وكـذلك المجسـمين هـم يشـبهون النسـاء فـي تغطيـة الوجـوه والتلـثم والتنقـب، وشـبه نسـاؤهم بالرجـال فـي الكشـف عـن الوجـوه بـلا تلـثم ولا تنقـب. وقـد لعـن رسـول الله (ص) المتشـبهات مـن النسـاء بالرجـال والمتشـبهين مـن الرجـال بالنسـاء، فقـد شـملتهم اللعنـة جميعـا، ومـن كثـر سـواد قـوم فهـو مـنهم"(27). والكفـار والمنـافقين "وطـاعتهم حـرام لأنهـم كفـار ومنـافقون ومتبعـوا الهـوى ومعتـدون ومفسـدون وجـاهلون"(28) ونحـو ذلـك من التهم الشنيعة، و الامور الفضيعة.

والجـدير بالـذكر أن مواقفـه الشـوفينية لـم تسـلم منهـا حتـى الخلافـة الفاطميـة فـي مصـر، التـي اتهمهـا بـالكفر والفسـوق قـائلا: "فـانظر الـى هـذه المحـاولات الشـنيعة والامـور الفضـيعة مـن ظلمـات المظـالم وانتهـاك المحـارم، والخروج عن مراسم السنة وحدودها "(29).

قصـارى الكـلام يمكـن القـول أن مـادة نظـم الجمـان تمثـل درجة الصفر في التحيز السياسي، والتعصب المذهبي.

2- المسـند الصـحيح فـي مـآثر ومحاسـن مولانـا أبي الحسن لابن مرزوق (القرن الثامن الهجري)

يعتبـر كتـاب المسـند الصـحيح في مـآثر ومحاسـن مولانـا أبـي الحسـن مـن الانتاجـات الواجـب وضـعها فـي طليعـة قائمـة المؤلفـات المخصصـة لسـير السـلالات الحاكمـة، والـدول المتعاقبـة. ولا غـرو فـالعنوان يفصـح هـو ذاتـه عـن

مضمونه، ويعفي مشقة البحث في خلفيات وحيثيات التأليف، بمعنى أن الكتاب صمم أصلا لكتابة سيرة السلطان أبي الحسن المريني، من جهة الثناء على محاسنه والتنويه بمآثره، والاشادة بمزاياه الروحية، مع الحرص على اجتناب العيوب والمساوئ، وستر العورات والجرائر.

من المحقق أن كتاب المسند في جوهره بلاطي الغايات والمقاصد، يكتبه رجل تعود على حياة القصور الامراء وأجواء بلاطات السلاطين، إذ التحق ببلاط السلطان أبو الحسن، ثم انتقل لخدمة بني عبد الواحد بتونس والناصريين بغرناطة ليعود من جديد لخدمة المرينيين(30) وهي أجواء وحيوات تجد تفسيرها وتعلتها في الظروف المحيطة بكتاب المسند الذي أراد من خلاله مؤلفه إرضاء السلطان "أبي فارس عن طريق الاطناب في مدح والده السلطان أبي الحسن من جهة ومن جهة اخرى التذكير بالمكانة التي كان يحظى بها أثناء حياة والده.

ويمكن الاستدلال على الذهنية البلاطية لابن مرزوق من تصفح كتاب المسند بفصوله الخمسة والخمسين، والتي تتعرض عناوينه لخصال السلطان الحميدة، واصفا شخصيته بأضخم النعوت، وأفخم الاوصاف، ويكفي الاشارة الى مقدمة مصنفه للوقوف على صحة ما سلف ذكره. إذ قال متحدثا عنه: "وبعد فإني لما قيدني احسان من أحسن الي، وافاض انعامه علي، ومن بموالاته شرفت، ولولا انتسابي اليه ما عرفت، فصرت لا أجري على لساني الى طيب شكره، ولا أقوم ولا أقعد إلا بذكره، ولا استنشق الا عبير نشره، ولا أسلو عن

حبه بغيره، وهو مولاي الذي في حجر ترتيبه نشأت، وبين يديه اكتسبت ما به على النظرات ظهرت، ومن أنوار حضرته العلية اقتبست، ومن المعارف المبثوثة بين يديه استفدت مولانا امير المسلمين أبو الحسن علي ابن موالينا الامراء الراشدين خاتمة الملوك بلامنازع، وسابقهم الى المعلومات غير مدافع. وخيرت من سيره الجميلة، وخصاله الكريمة، وشاهدت من شيمه العظيمة ما اعتقد اني اختصصت في عصره بمعرفته، وتميزت بتحصيل طرقه ومحجته"(31).

والامر نفسه ينسحب على باقي أجزاء مؤلفه، اذ لا تخلو صفحة من صفحاته من تعداد فضائله ومحاسنه، والاسراف في عرض مناقبه ومآثره ومحاسنه، والاشادة بحلمه وورعه وكرمه وصبره، ونبذه للسعاية والنميمة، ومحاربته للمناكر والمكوس والبدع وتشجيعه للعلم ورجاله، ورعايته لذوي الاقدار والاحساب والايتام والشيوخ، واهتمامه بالعمارة والعمران، وما الى ذلك من السجايا والخصال والفضائل والمحاسن، وإن كانت عناوين فصوله لاتعكس مضمونه بحيث يستشف منها في أحايين كثيرة انتفاء أية علاقة بين عنوان الفصل ومضمونه كما تعلق على ذلك مايا تشاتز ميلر.

من حصيلة ما تقدم نستخلص أن المسند الصحيح يقدم أنموذجا مثاليا للمديح السلطاني، ويرسم صورة رجل من رجال الحاشية البلاطية.

3- مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لعبد العزيز الفشتالي

يشخص الفشتالي بدون منازع نموذج المؤرخ المحابي الذي سخر قلمه. وجند فكره لخدمة وتلميع صورة البلاط المغربي على عهد السعديين حتى وصف بكونه أول مؤرخ رسمي حرص السلطان احمد المنصور الذهبي على ان يكون من بين موظفي دواوينه في تقدير ليفي برفنصال.

ومما يؤكد المهمة الرسمية التي تقلدها الفشتالي اجماع كتب السير و التراجم على انه كان متولي تاريخ الدولة اي مكلفا بتدوين أخبار الدولة السعدية وتسجيل أخبار وقائعها "و يأمر اي انا و من خصه من كتاب الانشاء ببابه العالي بكتب ما يجدد بعلامته الكريمة من رسوم اسلافه الكرام والاوامر القديمة"(32). ووزير القلم الاعلى في دولة المنصور بحيث أن معظم رسائل المنصور و ظهائره من انشائه (33). ثم شاعر البلاط الرسمي الذي نظم اكثر الاشعار المرقومة في استار البديع، والابيات المنقوشة في الخشب والزليج والجبص(34). لدرجة جعل كتابه مناهل الصفا في مأثر موالينا الشرفا مديحا وتقريضا لاسرة المنصور الشريفة (35).

وقد ازدادت مكانة الفشتالي عند البلاط السعدي بدليل انه اصبح من جلساء المنصور وخاصته المقربين كما اثبت هو نفسه في مناهله "ومن كرمه الصلات والعوائد التي يصل بها ايده الله خاصته وأهل بساطه غالبا عند المواسم... حضرت مجلس الخواص مع بابه العالي ايده الله ليلة عيد الفطر عام 993 هـ"(36).

انهـــا وظـــائف ومســـؤوليات جعلتـــه يغـــدق المـــديح بالمكيـــال الاوفـى، ويسـرف فـي التمجيـد والثنـاء علـى السـلطان احمـد المنصـور الـذهبي يؤيـد ذلـك ويدعمـه فـي نفـس الان الـنص التـالي "واميـر المـؤمنين هـذا اعلـى الله كعبـه، وأنـاخ فـي صـدور المسـلمين رعبـه، هـو اليـوم امـام الجماعـة وانسـان حذقـة الاسـلام، وقبـة تـاج الخلافـة النبويـة، ومقتعـد كرسـيها المنصـوب علـى قواعـد العـدل وسـريرها المرفـوع علـى دعـائم الحـق وركـن الامامـة المسـتلم عنـد اهـل الارض، والخليفـة المخصـوص بثـرات الرسـالة ومالـك امـرة المـؤمنين بحكـم الـولاء والكفالـة سـنام هـذه الدولـة الحسـنية وذروة عزهـا واوج فلكهـا ووسـطى عقـدها، كـان ايـده الله جـوادا كريمـا سـخيا دمـث الاخـلاق، ظـاهر الحيـاء والحشـمة بعيـد الهمـة نـاهض الجـد سـعيد الطلقـة ميمـون النقيبـة، مطعـم النصـر محمـى الحـوزة مرهـوب السـيف معطـى القبـول فـي الارض مـؤثرا للعـدل حسـن السـيرة جيـد الطريقـة، نـاهج المسـعى موفـق الـرأي، عفيـف الازاري نزيه الخلوة ..."(37).

يمـور الـنص الانـف الـذكر بفـيض مـن الخـلال والسـجايا والخصـال التـي يتمتـع بهـا السـلطان، ولـولا الاختصـار الـذي اشـترطنا لاوردنـا مـن شـريف خلالـه مـا يضـيق عنـه الرحـب و لا يسعه الكتب (38).

لكـن بـالرغم مـن تحيـز الفشـتالي وانجرافـه المطلـق وراء اديولوجيـة السـلطة الحاكمـة، فـإن مصـنفه يكتسـي اهميـة تاريخيـة لا يسـتهان بهـا، فهـو مـن جهـة يضـم تفاصـيل دقيقـة عـن حكـم المنصـور، وعـن الاحـداث التـي وقعـت فـي عصـره(39)، ومـن جهـة ثانيـة مصـداقية نتـوء رواياتـه وحسـبنا ان الكتابـات التـي يـدونها كاتبهـا عنـدما تكـون الاسـرة الحاكمـة فـي أوجهـا غالبـا مـا تتسـم بالنزاهـة والصدق الى حد ما (40).

وكحصيلة لما تقدم يمكن القول ان عبد العزيز الفشتالي لا يشذ عن القاعدة، ولا يشكل حالة نشاز، بل تمور كتابة تاريخ المغرب من بداياته وعبر امتداداته بهذا النوع من المؤرخين، والاشارة الى احاد منهم تكفي كأبي بكر علي الصنهاجي المعروف بالبيدق، وعبد المالك بن صاحب الصلاة بالنسبة للموحدين، والخطيب محمد بن مرزوق، واسماعيل بن الاحمر بالنسبة للمرينيين، والقاضي محمد الكراسي بالنسبة لبني وطاس، وعبد العزيز الفشتالي واحمد بن القاضي بالنسبة للسعديين، وابي القاسم الزياني ومحمد اكنسوس وعبد الرحمان بن زيدان بالنسبة للعلويين(41).

4- الجيش العرمرم الخماسي في دولة اولاد مولانا علي السجلماسي لمحمد بن أحمد الكنسوسي (ق 19 م)

يندرج كتاب الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي ضمن سياق الانتاجات التي تمحور نسيجها البنائي والتوثيقي حول أخبار وسير السلطة الحاكمة، وما يرتبط بها من مفاخر ومآثر، وما حظيت به من مقطعات شعرية، ومنظومات نثرية. ولا غرو فصاحب الجيش العرمرم تقلد مهام ومسؤوليات ذات شأن في البلاط العلوي، توزعت بين الكتابة والوزارة على العهد السليماني، وهي مهام ومسؤوليات جعلته يكيل المديح والثناء بالمكيال الأوفى الى حد قال عنه ليفي بروفنصال" بأنه لم يكتب التاريخ الا ليمدح ويتزلف"(42)، وإن كان أحمد الشرقاوي اقبال ينفي عنه هذه الصفة قائلا" ومن التكذب عليه أن يقال عنه أنه كان يتملق ويتصيد المناسبات ليحمد الحاكمين بما

لم يفعلوا مع أنه ذكر من نقائص الملوك القاصرين، ومثالب الامراء المنحرفين ما لا يجرؤ سواه على قوله، لا سيما والدولة هي التي أوعزت اليه بالتأليف فهي ترغب -لاشك- في إظهار الجميل والتغطية على القبيح"(43).

وقد ترجم هذه الرغبة في مطلع كتابه الذي توخى منه أن يكون أول عالم يخصص للعلويين تاريخا جديرا بمنزلتهم الرفيعة، وأنه تطوع لذلك بعد أن تأكد من قصور أو عجز من سبقه في هذا المضمار، ملاحظا أن ما كتبه الافراني في نزهة الحادي لا يبل غلة الصادي، وما كتبه أبو القاسم الزياني في البستان الظريف كخرقاء وجدت صوفا أعانه على ما ذكره تقاييد الشيخ ابن الحاج المكناسي الذي كان بغاية الذكاء موصوفا، وهو في ما جمع بلا ترتيب وتنقيح كحاطب ليل وباغت سيل، وأما الشريف العلامة القادري فقد ذكر في الازهار الندية بعض أخبار الدولة الاسماعيلية الى أول الدولة المحمدية وذلك قل من كثر، لا يسمن ولا يغني، ولا يقرب من ذلك الحق ولا يدني (44).

ولعل في استقراء نتوء المنزلة الرفيعة ما يخول إمكانية الوقوف على فيض من عبارات التزلف، وكلمات التقريظ والمديح في حق رجالات البلاط العلوي، نذكر منها الاوصاف الكريمة والخصال التي حلى بها السلطان عبد الرحمان بن هشام" وأما أوصافه الجليلة التي طبع عليها، ومال في كلية أمورها إليها، فلا تحصى ولا تعد، ولا ترسم ولا تحد من ذلك الكرم والشجاعة والحياء، والحلم والصبر والوفاء، وطهارة الباطن التي عنوانها نزاهة الطاهر، وعدله في القضايا التي وصلت اليه على حقيقتها، وقيامه بنوافل الخيرات من الصيام والقيام

والمحافظة على أداء الصلوات(...) هذه الاخلاق كلها كانت فيه على الكمال بالمشاهدة التي تحتاج الى برهان ولو ذهبنا الى ذكر ما وقع له منها لطال بنا الحال"(45). ناهيك عن المقطوعات الشعرية ذات الشحنةالتكسبية، والمنحى الاستجدائي التي جادت بها قريحته في مختلف المناسبات" فأدرك من ورائها أنواع البر و الاكرام، وأصناف الخير والبركات، والملابس الفاخرة التي تناسب عطايا أعاظم الملوك، وأساطين السلاطين فضلا عن الجوائز المتكاثرة المتعددة(46).

وتتواتر عبارات المديح السلطاني، لتطال كل أمراء وسلاطين الدولة العلوية من أوائل مؤسسيها الى عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان، واصفا مآثرهم وأعمالهم ومنجزاتهم بارق العبارات، وأعذب الكلمات، وتبرير مساوئهم وجرائرهم وانحرافاتهم باقوى الذرائع وأشد الاعذار، وتبخيس مأثر ومنجزات الغير بأشد لسان وأقدح كلم، من ذلك قوله" لو شاهد المنصور الذهبي سورا واحدا من أسوار مولاي اسماعيل لعلم أن ما أفنى فيه عمره من ذلك المنزل المسمى بالبديع إنما هو في التمثيل كدار ابليس التي تباع في عاشوراء ويلعب بها البنات، ولا تحتاج المشاهدة لاقامة البنيات(47).

وبنفس نغمة المقت والكراهية هاجم الدولة العثمانية قائلا أن تلك الناحية (يعني بلاد الجزائر) تنور منقد الجمار، لا يصلح تملكها الا لكل جاف جاهل حمار كالاتراك السفهاء الاغمار، وأنها ما أضيفت لهذه الدولة قط الا أثرت فيها فسادا وخللا، وأظهرت فيها آفات وعللا كما علم ذلك في أخبار الدول السالفة (48).

أمــــا بالنســـبة للانتاجـــات التـــي تبـــوب فـــي دائـــرة التـــاريخ المعتـــدل، فـــالراجح أن كتابهـــا أختـــاروا عـــن وعـــي أوعـــن غيـــر وعـــي مبـــدأ المنزلـــة بـــين المنـــزلتين فـــي ســـرد الظـــواهر التاريخيـــة، ومـــا يـــرتبط بهـــا مـــن أخبـــار الكيانـــات الحاكمـــة وســـير السلاطين والامـــراء مرتبـــة ترتيبـــا زمنيـــا فـــي تغييـــب كلـــي للعلل والاسباب الا ما نذر.

1 المعجـــب فـــي تلخـــيص أخبـــار المغـــرب لعبـــد الواحد المراكشي :

ينخـــرط كتـــاب المعجـــب فـــي تلخـــيص أخبـــار المغـــرب ضـــمن قائمـــة التصـــانيف التـــي تبنـــت موقفـــا محايـــدا الـــى حـــد مـــا، بـــدليل انتفـــاء مـــا يـــوحي بالتعصـــب الـــذهبي، والتحيـــز السياســـي فـــي نســـيج مروياتـــه، اللهـــم الا نزوعـــات حاملـــة لميـــولات عاطفيـــة مـــن قبيـــل تعاطفـــه مـــع المعتمـــد بـــن عبـــاد (واصـــفا ايـــاه بـــالمروءة ونزاهـــة الـــنفس وطهـــارة الســـريرة وشـــدة الملوكيـــة) (49)، وتحاملـــه الشـــديد علـــى الدولـــة المرابطيـــة وأميرهـــا علـــي بـــن يوســـف الـــذي ظهـــرت فـــي بـــلاده منـــاكر كثيـــرة وذلـــك لاســـتيلاء أكـــابر المـــرابطين علـــى الـــبلاد ودعـــواهم الاســـتبداد، وانتهـــوا فـــي ذلـــك الـــى التصـــريح، فصـــار كـــل مـــنهم يصـــرح بأنـــه خيـــر مـــن علـــي أميـــر المســـلمين، وأحـــق بـــالامر منـــه، واســـتولت النســـاء علـــى الاحـــوال، واســـندت الـــهن الامـــور، وصـــارت كـــل إمـــرأة مـــن أكـــابر لمتونـــة ومســـوفة مشـــتملة عـــن كـــل مفســـد وشـــرير وقـــاطع ســـبيل وصـــاحب خمـــر ومـــاخور، وأميـــر المســـلمين فـــي ذلـــك كلـــه يزيـــد تغافلـــه، ويقـــوي ضـــعفه، وقنـــع باســـم أميـــر المســـلمين، وبمـــا يرفـــع اليـــه مـــن الخـــراج، وعكـــف علـــى العبـــادة والتبتـــل، فكـــان يقـــوم الليـــل ويصـــوم النهـــار، مشـــهورا عنـــه ذلـــك، وأهمـــل

أمـور الرعيـة غايـة الاهمـال، فاختـل لـذلك عليـه كثيـر مـن بلاد الاندلس (50).

إنهـا نزوعـات لا تـنم مضـامين عباراتهـا عـن موقـف سياسـي صـريح، أو ولاء مـذهبي واضـح، بـل الامـر يتعلـق باضـفاء شـحنة مـن الموضـوعية والنزاهـة والصـدق لحجـب الارتجـاج والارتبـاك والتضـارب الـذي طـال نتـوءات رواياتـه، وهـو مـا عكسـته بجـلاء المحـاذير الثلاثـة التي ذيـل بها مقدمة كتابه:

أولها: ضعف عباراته وغلبة العي على طباعه

ثانيهـا: خلـو مروياتـه مـن إطـار مصـدري يعتمـد عليـه، ويجعلـه مستندا كما جرت عادة المصنفين في هذا الشأن

ثالثهـا: اخـتلال محفوظاتـه وارتباكهـا، بسـبب ازدحـام همومه وكثرة غمومه (51).

تأسيسـا علـى ذلـك وبامعـان النظـر فـي تلـك المحـاذير، تستشـف أن صـاحبها اسـتهدف مـن ورائهـا تبريـر زلات قلمـه وفلتـات لسـانه، وفـي ذات الان تحصـين مصـنفه مـن التقصـير والابتسـار، وإضـفاء الحيـدة والامانـة عليـه ،سيما وأنه ألفه بعيدا عن كل ضغط أو تملق.

وكيفمـا كـان الامـر، وبغـض النظـر عـن هناتـه واختلالاتـه، فـإن مصـنف عبـد الواحـد المراكشـي تنضـح متوالياتـه بقضـايا فريـدة، وموضـوعات دسـمة، مـن ذلـك اهتمامـه الواسـع بتـاريخ دولـة الموحـدين، فهـو يصـف تاريخهـا وصـف عيـان ومشـاهدة، مفصـلا القـول فـي نظمهـا، وتنظيماتهـا، وقبائلهـا وحياتهـا الاقتصـادية، ومـا الـى ذلـك مـن القضـايا والموضـوعات التـي تـنم عـن روح الصـدق فـي كـل مـا يرويـه في كتابـه مـن خبـر ومـا يصـف مـن حادثـة، ومـا يـرى مـن رأي أيضـا بـرغم صـواب ذلـك الـرأي أو خطئـه، وبعض الخطأ في الرأي نوع من صدق الرأي(52).

2- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول (ق 6 هـ)

بموازاة الانتاجات التي اتخذت مسارا معتدلا، وموقفا مهادنا يندرج كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية لمؤلف مجهول، ويستمد ذلك الاعتدال، وتلك المهادنة نسغها من مجموعة مؤشرات ذيل بها مقدمة مصنفه :

أولها: غربلة مروياته ونخلها تلافيا للاطناب

ثانيها: تطعيم مصادر مروياته بعدد من الاسفار، ومجموعة من دواوين العلماء الكبار

ثالثها: تأطير نتوء مروياته وفق خيوط زمانية ناظمة لها(53).

رابعها: تمثيل الحدث التاريخي وتوصيفه بطريقة تصويرية أقرب الى الحقيقة من الخيال مع مراعاة بعض الشروط الضابطة لذلك

خامسها: توشيح الغني بالله ملك غرناطة بعبارات الثناء والمديح والتقريظ

سادسها: تخصيص مدينة مراكش بعمل تاريخي يهتم بأخبارها

يطرح المؤشرين الاخيرين علامات استفهام كبرى عنك الحوافز والظروف والملابسات الكامنة وراء تأليف الكتاب. بمعنى هل جاء تأليفه بأمر من الغني بالله ملك غرناطة وبإيعاز منه وهو ما تعبر عنه الفقرات التي خصه بها، إذ حلاه بأضخم الصفات العلمية، وأفخم النعوت الخلقية، وأعظم السجايا الدينية "الامام خليفة رب العالمين، أمير المسلمين، كبير الملوك، وقذوة الخلفاء، المخصوص بالله بمزايا الاجتباء والاصطفاء،

عز الاسلام، وبهجة الايام، حامل الكل، وكافل الكل، أدام الله حياته، وعصم الكريم ذاته بفضله وكرمه، فلقد أضاء الاسلام بحسن تدبيره، وجميل سعيه، وبدت شواهد الاغتباط على من أوى الى كنف رعيه، حتى ملوك الاقطار مهما استشاروه يحمدون عاقبة تلك الاستشارة، وتصدر وفودهم من بابه بأنجح رأى وأعظم بشارة، فآمالهم اليه موصوفة، وأحكامهم على سياسته الحسنة موقوفة، فسبحان الذي خص هذه الايالة النصرية الخزرجية بخالص السريرة، وكرم السجية، وطوبى لمن نشأ في خدمتها العزيزة تحت ظلال اكنافها، ولحقت لابائه عناية أسلافها، فقد نال من حظ الدنيا والاخيرة مبتغاه، وأمن من عدوان الزمان ووعاه(54). أم أن تأليفه يستجيب لرغبة أقليمية قوامها كتابة تاريخ مراكش وجمع نبذ من عيون أخبارها، وتعداد الكرات في حصارها، الى غير ذلك مما كان فيها من الاحداث الكبار، والوقائع ذات الاعتبار، من لدن نزول سكانها، واختطاط بقعتها، ومكانها وابتداء تسويرها وبنائها، وذكر الباعث لاتخاذها مقرا لسلطانها (55).

غير أن الحلل ليست تاريخا محليا لمدينة مراكش، فهو يتعرض بشكل موسع لتاريخ المرابطين والموحدين ويختتمه بالمامة مقتضبة عن تاريخ دولة بني مرين.

كما أن الفقرات المخصصة لتبجيل الغني بالله وتطريز شخصيته بأحسن الصفات الخلقية لا ينهض قرينة على أن الكتاب برغماتي الهوى والمنزع، بل الامر يتعلق بالمعاملة الطيبة. ورد الجميل للرعاية البلاطية التي حظي بها. وألف مصنفه في ظلال نفوذها.

ومما يزيد في تعزيز هذا الرأي ويمنحه القوة والصلابة اهماله عن قصد أو عن غير قصد لتاريخ مملكة غرناطة وأخبار أمرائها وسلاطنيها وكأنه بهذا العمل يريد أن يبرئ نفسه من ذبيب التحيز السياسي، والتزلف الشخصي، وفي ذات الان يعطي الدليل إن كان الامر يحتاج الى دليل أن مصنفه موسومة تركيبة حناياه بميسم الاعتدال وأس الموضوعية.

3- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الافراني :

يجسد محمد الصغير الافراني نموذج المؤرخ الذي أمسك العصا من الوسط. ولا غرو فقد تسلح بالحيطة والاحتراز في تقاييده ومدوناته، وتحاشى اللمز الجارح، والغمز الفاضح تحت ذريعة وخلفية ان المؤرخ على شفا جرف هار، لانه يستطيل على اعراض الناس تعصبا او جهلا، او اعتمادا على نقل من لا يوثق به (56). أو بتعبير اكثر اجرائية فمسؤولية المؤرخ في عرف الافراني تستلزم تقعيد معرفة تاريخية تنحرف عن سكة الغلو في الاراء، والتجني في الاحكام تأسيا واقتداء بمن سماهم وجيه كوثراني برجال الاعتدال الذين لا يسبون ولا يلعنون ولا يفسقون ولا يكفرون (57).

على أساس ذلك تلونت روايات الافراني بتلوينات الاعتدال. وليس ادل على صحة ما نذهب اليه إقراره في نصوص كاشفةعن حقيقة هذا المنحى إذ قال : " ان غرضنا في هذا الكتاب ، الاغضاء عن العورات، والتستر عن الفضائح(58)، بل الاكثر من ذلك ضرب صفحا عن مطاعن رأى الاعراض عنها أولى، لان من شروط المؤرخ

الا يبيع العورات، ولا تهتك الاعراض، وتجنب التغالي في الذم في حق من يستحقه منه (اي السعديين) سترا للاعراض، ورعيا لجانب الخلافة (59).

يتأكد مما تقدم ان الافراني مارس أشكال من اشكال الرقابة الذاتية على رواياته، وحتى منقولاته التي ذيل بها كتاباته موسومة بميسم الامانة والدقة، الى حد يعد حسب ليفي بروفنصال من الكتاب الذين يحضون بكامل الثقة والتقدير (60).

وبجانب (هذين النوعين) من الانتاجات، هناك نوع ثالث يصنف في خانة الاتجاه المعارض. ولا غرو فقد تصدر كتابها عن قناعة صادقة، أو عن قناعة مؤدلجة تسجيل اخبار الحكام، وسير السلاطين والامراء، وأحوال البلاطات وما يجري في ردهاتها من دسائس ومؤامرات وفق نهج قوامه حجب المحاسن، وتضخيم المساوئ، الى حد تجريد الانظمة القائمة من كل مفخرة وآثار أو تحويلها الى مجرد كلشيهات سوداء ليس الا، مع التأكيد أن الكتاب الذين تسلحوا بسلاح المعارضة في وجه أهل الحل والعقد يعدون على رؤوس اصابع اليد الواحدة، ويأتي في طليعة هؤلاء مؤرخ الدولة السعدية المجهول الذي أرخى العنان لقلمه في كتابه تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية فسجل فيه امورا شنيعة، واخبارا فظيعة تفيض بأشد نقد، وأحد لسان، وهو يصل في ذلك الى حد تخوين وتجريح سلاطين الدولة السعدية، والحط من قدرهم، واخراجهم عن النسب الشريف، ووصف دولتهم بالدولة الخبيثة. مع الضرب عرض الحائط بالامانة التاريخية، ومجافاة الموضوعية في كثير من الامور.

ويتأطر المنزع الاديولوجي المعارض للمؤلف المجهول في مقامات متعددة، وسياقات مختلفة يبقى اهمها الحملة الشعواء التي شنها على السلطان محمد الشيخ السعدي وهاك نص ما قاله في هذا الصدد "كان اسمر اللون أدبس ثامر العينين، كبير الانف، غليظ الشفتين، جهير الصوت جبارا قبيح الذات والافعال غدارا لمن خدمه ونصحه مسرعا الى الفساد في القينات والصبيان والاولاد، مصرا على الخمر والحشيش لا يغتسل من جنابة ولا يشهد في جمعة، اكل لرمضان قليل الهيبة، يضر بالمساكين ويأكل اموال الرعية. وكانت الناس في ايامه تعس بالليل على حوانيتها و ديارها، سرق في ايامه برج الثياب وبرج الاعشار الذي على واد العظام، وسرقت دار السكة، وسرقت له الخوامي من على باب قبته، ومن جملة ماوقع من ظلمه بعد وفاةأبيه ان الرماة كانوا يقبضون المبيت من العرب مثقالا في كل ليلة وكبار الجيش من اربعين اوقية الى مائة اوقية ويأخذون البقر والقطف، ويفسقون في نساء البلاد ...(61) .

ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل جرفت حملة المؤلف المجهول اليابس والاخضر من سلاطين الدولة السعدية فقد اتهم عبد الله الغالب بالخيانة والخذلان عندما كتب الى سلطان النصارى واتفق معه ان يخلى الادالة على حجرة بادس، ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين (...) فأتت النصارى بالعمارة الى الحجر، ونزل المسلمون وسكنها النصارى برأي السلطان الفاسد(62). والامر نفسه ينطبق تمام الانطباق على السلطان مولاي عبد الله الذي تبع سيرة أبيه و زاد عليه فوقع من الفساد منه ومن جيشه ما لا يقدر على وصف لقبحه، بل كان

يزني بنساء عمه، وجواري جده، ودخل شهر رمضان وكان يشرب الخمر فيه جهارا مع خدامه ... (63).

ان الاوصاف والاتهامات التي دمغ بها المؤرخ المجهول أمراء الدولة السعدية تفسر بشكل او بأخر أسباب إخفاء اسمه، إما خوفا على نفسه، او اتقاء لشر من غمز قناتهم في كتابه (64).

وعلى الرغم من ذلك فإن كتاب تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية تنطوي احداثياته على معطيات عظيمة القيمة والفائدة لا سيما وانه يتضمن أخبار المغرب وأخبار ملوكه وعامته، وكذلك أخبار المتاعب والازمات تارة بالارقام، وتارة أخرى بالتقدير والتلميح. كما ان اجرائية نصوصه نابعة اساسا من الاعتماد المكثف على الروايات الشفوية، وهو ما يجعله متميزا عن الكتابات التاريخية الاخرى التي تناولت تاريخ المغرب على عهد الشرفاء السعديين(65) .

وعلى غرار المؤلف المجهول تبنت تصانيف وتواليف أخرى نفس التصور والرؤية في عملية تسجيل مساوئ وعيوب أهل الحل والعقد من خلال التنديد بجورهم وعسفهم، غير أنه من المحقق أن مؤلفاتهم تعرضت للطمس والاتلاف والمحو لطمر واخفاء كل ما من شأنه أن يزعزع الثوابت، ويخلخل تماسك المجتمع، ويندرج في إطار تلك المصنفات التي طالها الطمس الكتاب الذي ألفه الشريف المولى الحسن بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله إذ أورد فيه حسب ما يرويه كتاب جديرون بالثقة أمورا مملوءة بالنقد واللوم المرير، بل ولم يجد حرجا في تسجيل جميع ما شاهده من نقائص الاسرة الحاكمة التي ينتمي اليها ومنها اخطاء حكومة والده(66).

3-هيمنة الخطاب العجائبي

تنطوي متواليات المتن المصدري على قضايا وإشكاليات ذات صلة بإفرازات وتمثلات الخطاب العجائبي الذي يستمد هويته ومفهومه من الخوارق والمعجزات، من أجل تمرير إديولوجية معينة، أو تكريس قضية بعينها، وللبرهنة على مشروعية، ومصداقية البعد العجائبي نورد مثالين يحملان أكثر من دلالة، وبعد نظر.

- يتحدث ابن عذاري المراكشي في كتابه "البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب" عن تأسيس القيروان على يد عقبة بن نافع قائلا : "وفي سنة 51 هـ شرع عقبة في ابتداء بناء مدينة القيروان، وأجابه العرب الى ذلك. ثم قالوا إنك أمرتنا بالبناء في شعارى وغياض لا ترام. ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك. وكان في عسكره ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله (ص) و سائرهم من التابعين. فدعا الله سبحانه واصحابه يؤمنون على دعائه، ومضى الى السبخة وواديها ونادى أيتها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله (ص) فارحلوا عنا فأنا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه. فنظر الناس بعد ذلك الى أمر معجب من أن السباع تخرج من الشعرى وهي تحمل اشبالها سمعا وطاعة، والذئب يحمل جروه، والحية تحمل اولادها. ونادى في الناس. كفوا عنهم حتى يرحلوا عنها، فلما خرج ما فيها من الوحوش والسباع والهوام، والناس ينظرون اليها حتى أوجعهم حر الشمس، فلما لم يروا منها شيئا دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر "(67).

تطفح رواية ابن عذاري بالكثير من الحقائق التاريخية القابعة بين ثنايا تجاويفها نختزلها فيما يلي :

1 – تأثير الخوارق والمعجزات في تأسيس المدينة الاسلامية، مما يدل على رسوخ الطابع الاسلامي العام في اختطاط المدن، وازدهار العمران باعتبار الاسلام دين بناء وعمران بغض النظر عن الاختلافات العرقية والمذهبية والاقليمية (68).

2 – عرضت الرواية لأهمية الموضع الذي هو عبارة عن شعارى وغياض لاترام، وكثير الاحراش والغابات، ومأوى الحيوانات الضارية التي استجابت لوعد ووعيد عقبة بن نافع ومن معه بمغادرة أوكارها حاملة معها صغارها سمعا و طاعة.

3– تضخيم الخيال الى حد الانحراف عن جادة الصواب. فالحقيقة حسب بعض الباحثين ان عقبة بن نافع لجأ الى تدبير عملي لطرد الوحوش و الزواحف بإضرام النار في الاعشاب و الاشجار. ويذهب البعض الاخر الى تطبيق الخبرات الفارسية، و ذلك بوضع مواد كيماوية منفرة جعلت الحيوانات تسرع بمغادرة المكان (69).

4– تمثل تيمة المكان بنباته ووحيشه نغمة مشتركة في الروايات التاريخية التي نسجت حول المدن المغربية . و دلالة على تعاظم ظاهرة العمران المديني في بلاد المغرب بعد استقلالها عن الخلافة العباسية (70).
5– تنم الاشارة الى أصحاب رسول الله (ص) عن قدسية عملية الفتح الاسلامي، وعن الخلفية الاسلامية في بناء المدن وازدهار العمران، وهو مايعني في نهاية الامر

تجسير تبعية بلاد المغرب لبلاد المشرق عن طريق اضفاء البعد الديني الصرف عليها .
6- تشي عبارة " فنظر الناس بعد ذلك الى أمر معجب " الى اجرائية ودينامية الخطاب العجائبي في تحقيق فعل التأثير والاندهاش في نفسية المتلقي الجمعي من أجل الاجهاز عليه بعد ترويضه ايديولوجيا، وتطويعه سياسيا، واحتوائه اجتماعيا.

-يتحدث أبو الحسن علي الجزنائي في كتابه"جنى زهرة الاس في بناء مدينة فاس" عن نهر فاس قائلا " فمنها نهرها المعروف بنهر الجوهر (أي فاس) الذي بأعلاها بنحو ستة اميال، وهو يخرج من نحو ستين عنصرا، جلها ينبعث من جهة القبلة، وبعضها من جهة الغرب مسامتا لمشرق الشمس، وله منظر عجيب لصفائه... فيشق اكثر جهاتها، ويتشعب في داخلها، فينتفع به مساجدها وسقاياتها ودورها ... ثم يخرج منها وقد حمل أثفالها، وسائر فضلاتها... لا وليس لهذا النهر نظير لصفائه، وعذوبة مائه، وخفته، وبرودة عيونه في زمن الصيف، وسخانتها في زمن الشتاء، وهو يسخن سريعا وينهضم سريعا... ومن منافعه انه يفتت -الحصا التي تكون في المتانة، ويزيل الصيبان من الرأس، والقمل من الجسد لمن اغتسل به، وداوم على شربه، ويلين البشرة، وتغسل به الثياب دون صابون فيبيضها، ويكسوها رونقا وروائح طيبة، ويوجد فيه السرا طين المستعملة في الادوية وليست توجد في غيره الا نادرا "(71).

تنطوي رواية الجزنائي على مجموعة من الحقائق التاريخية نجملها فيما يلي :

1 – تــوفر المنطقــة علــى بنيــة جيولوجيــة غنيــة بمواردهــا المائية، وامكانياتها الطبيعية، وثرواتها المعدنية.

2 – تشــي جــودة مــاء النهــر الــى احتــواء روافــد ينابيعــه علــى ميــاه غنيــة بالغــاز الكربــوني، ومــادة الكبريــت، والحــرارة المرتفعــة خاصــة ميــاه حمــة خــولان التــي تعــرف حاليــا بسيدي حرازم .

3 – ســطرت روايــة الجزنــائي جملــة مــن المزايــا والمنــافع التــي يخــتص بهــا نهــر فــاس، بعضــها يصــيب كبــد الحقيقــة، وبعضــها الاخــر يضــج بالمبالغــات المفرطــة، والغلــو الشــديد، الامــر الــذي أوقعــه بــوعي أو بــدون وعــي فــي شــراك النزعــة العصــبية التــي لــم يتــوان علــى امتــداد فصــول مصــنفه النفخ في كيرها، والعزف على أوتارها.

4 – تحيــل عبــارة "ولــه منظــر عجيــب لصــفائه" علــى اواليــة الخطاب العجائبي، وتأثيره الفاعل في الوجدان الجمعي

5 – انطــواء روايــة الجزنــائي علــى خلــل تــاريخي قوامــه ان مدينــة فــاس يخترقهــا نهــران و لــيس نهــر واحــد. وهــو مانعــاه عليــه محقــق المــتن قــائلا : "ان النهــر الــذي يخــرج مــن فــاس حــاملا أثقالهــا و ســائر فضــلاتها لــيس هــو نهــر الجــوهر، بــل هــو نهــر اخــر يــدعى وادي بــوخرارب يلتقــي بــوادي ســبو علــى بعــد أربعــة كيلــومترات الــى الشــرق منهــا، وعلــى النهــر الاخيــر توجد القناطر التي تصل احدى العدوتين بالاخرى"(72).

خلاصــة الكــلام ان الخطــاب العجــائبي يعــد البــؤرة المركزيــة فــي نســيج الظــاهرة التاريخيــة، بــل وتغطــي معانيــه ودلالاته بنية المتن المصدري بشكل مضمر أو مكشوف.

4-طغيان النزعة العصبية

تخترق النزعة العصبية ثنايا المتن المصدري أفقيا وعموديا،تصريحا وإضمارا عبر شبكة من المقاطع، والعبارات، والصفحات، التي تمور بنيتها التركيبية. والدلالية برائحة النعرة القبلية. وشوائب التحيز الإقليمي.

وهكذا شكلت النزعة العصبية بخلفياتها وملابساتها اللحمة المركزية في خطاب الاسطوغرافية التقليدية. باستحضار وتمثل ما يمت بصلة للروح القبلية، والبعد الاقليمي، والهوى المغربي. لذلك انبرى كتاب الحوليات التقليدية لاعادة الاعتبار لتاريخ المغرب عبر رسم واستعراض محاسن سكانه. وفضائل أرضه. وسحر أنهاره، وعذوبة مياهه، وجودة مواشيه وأنعامه، والثناء على علمائه وصلحائه، وفقهائه، وقضاته. وأمرائه. وسلاطينه. وهلم جرا من اصحاب الحل والعقد الذين طمست اخبارهم واثارهم عن قصد او عن غير قصد، وهو ما تبلور عمليا في شكل مدونات ومصنفات والاشارة الى احاد منها تكفي كالتشوف الى رجال التصوف الذي استهدف منه صاحبه تأكيد حديث الرسول (ص) بأن في المغرب طائفة لا يزال اهلها ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة، ولكن اهملت اخبارهم، وجهلت اثارهم. كذا الحال بالنسبة لأنس الفقير وعز الحقير الذي صنفه ابن قنفذ ليجعل محوره أبا مدين، ويسجل فيه ما شاهده في المغرب من صلحاء وأولياء، ولكن ليثبت وهذا هو الاهم من كل ذلك سند عائلته الصوفي، واستحقاقه لوراثتهم وبالجملة فإذا ما وجدت

روايات تؤكد امانة المغاربة في مقابل المشارقة وعفتهم و ورعهم. وتؤكد على الاقليمية أو تظهر صلات الاسرة أو الطائفة، أو تحقيق البطولة الفردية أو القبلية فإنها وضعت وضعا (73).

ولا يقف الأمر عند حدود ومنعطف المقاطع، والصفحات، والعبارات، بل يتعدى ذلك إلى توشيح صدر المتون المصدرية بعناوين تشخص، وتعبر بجلاء عن البعد المحلي الضيق.

وعليه لا ينبغي أن يعزب عن البال أن خيوط النزعة العصبية التي تذيل بها، وتؤشر عليها عناوين المتون المصدرية لا تنطبق تمام الانطباق على كل محتوياتها ومضامينها بل تنخرط العتبة / العنوان في سياق عام أملته قاعدة السجع ليس إلا، أي أن حبكة ونسيج العنوان، يعتمد على جرس الكلمات، وتناسق الحروف، المشكلة لإيقاعات موسيقية، يكون لها وقع وصدى على المتلقي.

ومن القرائن الدالة على تسرب النزعة العصبية بين دفتي عناوين المتون المصدرية، نسوق عينة منها على سبيل المثال لا الحصر:

- علي الجزنائي : جنى زهرة الاس في بناء مدينة فاس. تحقيق عبد الوهاب بنمنصور
- ابن القاضي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس.
- عبد الرحمن بن زيدان : إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس.
- محمد داوود : تاريخ تطوان.
- محمد بوجندار : الاغتباط بتراجم أعلام الرباط.

بيد أن عنوان الكتاب لا يعكس البتة مضمونه، فصاحب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية الذي الف اصلا للحديث عن المدينة وتاريخها لم يفرد لها سوى صفحتين يتيمتين. كذا الحال بالنسبة لابن ابي زرع الذي لم يخصص لمدينة فاس وتاريخها سوى شذرات لا تروي ظمأ(74). والحكم نفسه ينسحب على كم هائل من الحوليات التقليدية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن منحنى النزعة العصبية له امتدادات وتقاطعات في معظم المصادر العربية، الأمر الذي حدى بالأستاذ ليفي بروفنصال إلى الجزم "أن الأخبار والروايات التاريخية، تشوبها شائبة التحيز الظاهر نتيجة خضوعها للعامل القبلي، النابع من طبيعة تنظيم العرب القبلي" (75)، ونفس الرأي عبر عنه الأستاذ سعد زغلول عبد الحميد حيث استشف في هذا الصدد أن "كل جماعة قبلية تأخذ بالرواية التي ترضى نزعتها، أو نعرتها القبلية، بل تغير فيها حتى تلائم منزعها هذا، ومن أمثلة هذا التحيز القبلي أن الواقدي نسب في كتابه فتوح افريقية فخر فتح المغرب إلى قبائل اليمن، وإلى قبيلة حمير بالذات(76).

والغريب في الأمر والأنكى أن نجد مؤرخا من عيار ابن تغرى بردى يعمد إلى تقعير جذور النزعة العصبية إرضاء لرغبة ذاتية محضة، وهكذا يقول ببساطة المؤلف النزيه في كتابه "النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة". " ولم اقل كمقالة الغير، أنني مستدعي إلى ذلك من أمير أو سلطان، ولا مطلب به من الأصدقاء والإخوان، بل ألفته لنفسي، وأينعته بباسقات غرسي، ليكون لي في الوحدة جليا، وبين الجلساء مسامرا وأنيسا" (77).

5- سيادة النزعة المذهبية

تحيل النزعة المذهبية على خطاب ديني، يمتح أصوله، وآلياته، من مشارب وروافد الاعتقاد الإيماني، وما تناسل عنه من مماحكات ومشاحنات نظرية، ومناظرات كلامية، تتحرى تأصيل حدود التماس بين الأصول والفروع.

من هذا المنظور يطفح نسيج المتن المصدري بخطابات مذهبية تتأرجح بين الشيعية، والخارجية، والسنية، وكل خطاب يجسد الهوية الحقيقية للمؤلف، عبر سلسلة من القيم الإيحائية، والطاقات التعبيرية التي تؤكد بشكل لا يدع مجالا للشك ميكانزمات النزعة المعبر عنها، والمقيد بتلابيبها.

وهكذا تنطمر في ترسبات المتن المصدري أبعادا ودلالات لا حصر لها يتقاطع، ويندغم في قاع مجاريها، تيارات، واتجاهات دينية متعددة يهيكل أليافها قاسم مشترك ينحو منحى التعصب الشديد تارة، والعداء المقيت، والتحامل المبيت تارة أخرى، أو بعبارة أكثر عمقا وشمولية كل تيار مذهبي يضفي على مبادئه وأفكاره هالة من القدسية، والخوارق، والكرامات، والبطولات، مع الضرب عرض الحائط بالتيارات الأخرى التي تنحاش – من وجهة نظره – في خانة الهرطقة، والسفسطة الكلامية، والأقاويل المصطنعة المفتعلة.

ومن أجل الاستدلال على إجرائية، وحقيقة الميولات المذهبية الكامنة في جزئيات، وتفاصيل المادة المصدرية، لا مناص من تسليط الضوء على نموذج من نماذج المصنفات التاريخية التي تصب في نفس البؤرة، ونخص بالذكر المصادر الشيعية، ثم سبك ترسيمة بيانية عن

مصدر متطرف يجأر بالشكوى من أوحال الإفراط في المغالاة الشديدة، ونعني به أخبار المهدي بن تومرت للبيدق.

-المصادر الشيعية

تدور أخبار، وروايات هذا النوع من المصادر حول الدول، والإمارات التي تبنت المذهب الشيعي كمنهج، وأسلوب حياة، مع الاستفاضة والإطناب في تسجيل تاريخهم، وتحديد أصولهم وأنسابهم، وتبجيل زعمائهم وقادتهم، وعلى النقيض من ذلك تنتفي أخبار المذاهب المناوئة، اللهم إلا بعض الإشارات الشاحبة، والإيماءات اليسيرة، التي تأتي عرضا، وفي سياق الأحداث العامة.

ويشخص كتاب "صورة الأرض" للجغرافي ابن حوقل علامة، وأنموذجا حيا لهذا الاتجاه، مصداق ذلك النص التالي : "وانتقل عنها رجالها (أي المهدية) بانتقال المنصور عليه السلام وبعدها عنها، وسكناه المنصورية من ظهر القيروان، وذلك لما دهمه من أبي زيد مخلد بن كيداد وقصده المخالفة عليه، واطرد ما اطرد له عند خروجه بالمغرب في أحزاب الكفر والنفاق، والاباضية، والنكارية المراق، فانه سارت به الحال عند نجومه لما سبق به القدر وتقدم به القضاء، إلى أن استولى على المغرب بأجمعه، وحاصر المهدية، وضيق على أهلها، وموالينا علهم السلام، حتى أذن الله تعالى ببواره وهو في غاية الثقة بأنصاره، والسرور باغترار، فخانه فجوره، وأسلمه سروره وخرج إليه مولانا أمير المؤمنين المنصور بالله صلى الله عيه وسلم في فئة شعارها الإيمان، وعادتها من الله الظفر والإحسان، وعدو الله في عدد لا

يحصى، وأمة أذن الله فيها بالفنى ... يمر مرا كرجع الطرف ابطؤه في قبض أنفسهم والنصر منتظم، فزحزحهم عن مستقرهم، وصياصيهم، وبدل السيف في نواصيهم وانهزم اللعين وقد عاين الموتى، وشارف الموت، يطلب من الأرض معادا وفيها من سوء ما اقترفه لوانا، فمناه أهل القيروان الغرور و انزلوه كالمقهور، وقد وصل إليهم، في مرحلة واحدة فمنوهم الأباطيل، وزخرفوا له الأقاويل، فأقام ووصل المنصور أمير المؤمنين صلوات الله عليه فنزل عن غربي القيروان في منزل نزله بالسعادة، وعلت فيه طير النصر والسلامة، فتيمن بنزوله وتبرك بحلوله فأنجزه الله ما وعده وبلغه ما أمله، فهزم أبا يزيد عن مكانه، وأمكن الله من حزبه وأعوانه، فمن على أهل القيروان بالعفو والغفران، واتبع أبا يزيد، فكان بينهما ما يطول شرحه ويتفاقم إنباؤه إلى أن أخذه ورجع إلى العسكر المنصور و المكان المذكور" (78).

يسعف تفكيك النص في تحصيل الخلاصات التالية:

* تغليف شخصية مخلد بن كيداد وجماعته، بغلاف الأوصاف القدحية، و النعوت الشائنة "أحزاب الكفر و النفاق"، "الفجور"، "عدو الله"، "اللعين"، وهلم جرا من الأوصاف، والنعوت المشحونة بالتحامل المذهبي حتى وصل الحال إلى حد التكفير.

* تسييج شخصية المنصور بسياج التعظيم، والتفخيم، والتبجيل إلى درجة يعادل ويوازي فيها مقام الأنبياء والرسل.

* إن الإفراط والمبالغة في التعصب للمذهب الفاطمي يضع أكثر من علامة استفهام حول قيمة وصحة،

ومضمون المعلومات التي أوردها، وتتسع رقعة المفارقة، ومساحة التحامل المكشوف، إذا علمنا أن ابن حوقل كان جاسوسا في البلاط الفاطمي وينسحب الحكم ذاته على لفيف من كتاب المصنفات التقليدية، فهذا "أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد لا يخفي تحامله الشديد على الخوارج وتعصبه للفاطميين حيث يذكر المهدي مسبوقا بعبارة " سيدنا الخليفة الأول أمير المؤمنين " (79).

ان الحديث عن المرجعية الشيعية ونسغها الاديولوجي، يجرنا الى سبك خطاطة بيانية عن مصدر موحدي يغلي بسعار العصبية المذهبية في أعلى قمة درجاتها ونعني به أخبار المهدي بن تومرت للبيدق

اللقب	الصحيفة	المجموع
- الإمام	11	1
- سيدنا المعصوم رضى الله عنه	11 – 12	2
- الإمام رضي الله عنه	11 – 13	2
سيدنا المعصوم	12–25–26–35–36–38–38 -41	8
المعصوم	12-16-16-16-18-18-18-19-12-20-20-20-21-21-21-22-22-22-22-22-22-22-22-23-23-23-23-23-23-24-25-25-25-26-26-27-27-27-28-28-28-29-30-30-31-31-32-32-	70

	-35-35-35-35-35-35-35-34 -40-39-38-38-38-37-37-37 36-41-41-41	
الإمام المعصوم رضي الله عنه	12	1
المعصوم رضي الله عنه	17-17-17-16-16-16-14-13	8
الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه	14	1
رضي الله عنه	-55-45-43-43-33-14-13-11 95-79	8
الإمام المهدي المعصوم رضي الله عنه	16	1
الإمام المعصوم	-33-28-23-20-20-19-18-18 44-36-33	11
الإمام المهدي	45-43-20	3
مولانا الخليفة رضى الله عنه	44	1
المهدي رضي الله عنه	95-94-45	3
المجسمين	90-51-38-37-37-35-35	7

نستشف من الجدول أعلاه أن لقب " المعصوم " ينفرد بمركز الصدارة. ويليه في الترتيب لقب "الإمام المعصوم ". مما يدل إن كان الأمر يحتاج إلى دليل أن شخصية محمد بن تومرت تمثل قطب الرحى التي يدور حولها

الكتاب، سواء من حيث استعراض أقواله، وأفعاله أو من حيث تسجيل كل التفاصيل عن سيرة حياته بل الأكثر من ذلك أضفى عليه كل صفات الخوارق و الكرامات، مقابل ذلك وسم خلفاء الدولة المرابطية بلقب "المجسمين". كما أن عنوان الكتاب يفصح هو ذاته عن مضمونه، ويشخص بعمق هامش النزعة المذهبية في أعلى درجات تجلياتها وتمظهراتها.

وعلى غرار المصادر الشيعية تنوء المصادر السنية تحت وطأة التعصب المذهبي. ولا غرو فقد اخترق متواليات أنسجتها قولا وفعلا وفكرا وشعورا، ليكتسب في مقامات متعددة، وسياقات مختلفة ذبيب الغلو الشديد الذي يمتح مفاهيمه ومعانيه من معجم لغوي قوامه القدح الجارح، والافتراء الفاضح والتحريف الواضح، ناهيك عن ممارسات أخرى أشد ضراوة، وأقوى شراسة كحرق مصنفات المناوئين انتصارا للمذهب، وتعصبا لمبادئه، وينهض دليلا على ذلك ما حدث لكتب أبي محمد بن حزم الأندلسي (ت456هـ) فبسبب الخصومة التي كانت بينه وبين فقهاء المالكية بالأندلس جعلتهم أي الخصومة يمقتونه ويحرقون كتبه علانية حتى قال ابن حزم في ذلك : فإن يحرقوا القرطاس، لا يحرقوا الذي تضمنه القرطاس، بل هو في صدري. والأمر نفسه ينسحب على ما جرى لكتب حجة الإسلام لأبي حامد الغزالي (ت505هـ)

في المغرب الاسلامي زمن دولة المرابطين. وذلك أن السلطان علي بن يوسف بن تاشفين أمر بإحراق كتب الغزالي وهدد بقتل ومصادرة أموال من وجدت عنده مصنفات الغزالي أو بعض منها، وكان القاضي عياض

(ت544هـ) من بين الذين طالبوا بحرق كتب الغزالي ويبدو أنهم فعلوا ذلك لما وجدوه فيها من مقالات كلامية وأشعرية وصوفية تخالف ما هم عليه من مذهب السلف وأهل الحديث في أصول الدين، وغير ذلك من الأمثلة التي ساقها خالد كبير علال في كتابه التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي.

6- موقع الأسطورة في المتن المصدري

قبل تأصيل موقع الأسطورة في تركيبة، وحمولة المتن المصدري لا مندوحة من تعريف مفهوم الأسطورة .

يذهب العلماء مذاهب شتى في تعريف الأسطورة" فمنهم من رأى فيها التاريخ في صورة متنكرة، ومنهم من اعتبرها مرضا من أمراض اللغة، ومنهم من جعلها مرآة لقراءة نفسية الذين ألفوها، ومنهم في الأخير من اعتبرها إدراكا مبتدئا، بل إدراكا خاطئا " (80) .

مهما يكن من أمر الشحنة المعرفية والرمزية التي تحيل عليها الأسطورة، فإنها تمثل في نهاية المطاف طورا من أطوار الفكر الإنساني، أو وظيفة من وظائف الذهن الإنساني، بيد أن السؤال الجوهري الذي يفرض نفسه بإلحاح: ما هي المؤشرات والبصمات الدالة على احتواء المتن المصدري لنفحة أسطورية؟ هل هي مؤشرات وبصمات تشذ عن القاعدة، ويقدمها المؤرخ التقليدي على أنها حقائق ثابتة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال إجابة شافية مقنعة لن يتأتى إلا بإعادة تفكيك المتن المصدري وفق منظور

يرتكز على استقصاء وانتشال بعض الجزئيات ذات المنحى الأسطوري .

وهكذا وبالرجوع إلى المتن المصدري يمكن استبطان، واقتطاع سلسلة من الأساطير التي نسجت حول تخطيط وتأسيس المدينة المغربية، وهي أساطير تراوحت بين ظواهر غيبية خارقة، وبركات روحانية ربانية، وكرامات إنسانية مقدسة، وليس أدل على ذلك من تأسيس مدينة فاس نظرا لما أثير حولها من روايات متضاربة، وأساطير خرافية، نسج خيوطها، وحبك أليافها ابن أبي زرع و الجزنائي و غيرهما.

فرواية " صاحب القرطاس " تؤكد " أن الإمام إدريس لما عزم على بناء مدينة فاس ووقف في موضعها يختطها مربه شيخ كبير راهب من رهبان النصارى، وقد نيف على مائة وخمسين سنة كان مترهبا في صومعة قريبة من تلك الجهة، فوقف بادريس وسلم عليه، ثم قال له أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين؟ فقال أريد أن اختط بينهما مدينة لسكناي وسكنى أولادي من بعدي، يعبد الله تعالى بها و يتلى بها كتابه، وتقام بها حدوده، قال أيها الأمير إن لك عندي بشرى، قال وما هي أيها الراهب، قال انه اخبرني راهب كان قبلي في هذا الدير توفي منذ مائة سنة انه وجد في كتاب علمه انه كان بهذا الموضع مدينة تسمى ساف خربت منذ ألف سنة وسبعمائة، وانه يجددها ويحيي دائرها، ويقيم دارسها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس : يكون له شان عظيم، وقدر جسيم لا يزال دين الإسلام قائم بها

إلى يوم القيامة فقال إدريس رضي الله عنه الحمد لله أنا إدريس، وأنا من بيت آلالرسول(ص)، وأنا بانيها إن شاء الله، فكان ذلك مما قوى عزم إدريس على بنائها، فشرع في حفر أساسها " (81). وبموازاة مع ذلك يسوق رواية أخرى لا تخلو من مغزى أسطوري مفادها " أن رجلا من اليهود احتفر أساس دار يبنيها لسكناه بقنطرة عزيلة عن المدينة المذكورة، والموضع يومئذ شعراء بالطحش والبلوط والطرفاء وغير ذلك فوجد في الأساس دمية رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالقلم المسند هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب فأقيم موضعه بيعة للعبادة " (82).

أما صاحب زهرة الاس فأراح نفسه عناء ومشقة هوس التقصي والمساءلة حيث لا تعدو روايته أن تكون مجرد نوع من الاستنساخ والاجترار لرواية ابن أبي زرع.

وبنفس القالب الأسطوري نسج المؤرخ التقليدي ترهاته، وطرز طلاسم مبالغاته حول ملابسات رحلة إدريس بن عبد الله إلى المغرب حيث يقدم، ويصور من جهة كبطل وصاحب معجزات، وخوارق، ومن جهة ثانية كشخصية شريدة، مطاردة ومغامرة"، تمكن من تأسيس دولة دون سابق إعداد أو تدبير من هنا جاء مصدر الاختلاف والتضارب حول كيفية الهرب ووقائع الرحلة، والصواب في ما يرى المؤرخ الكبير محمود إسماعيل " أن دعاة الزيدية امنوا له الإقامة بمصر والخروج منها إلى برقة حيث تكفل دعاة المعتزلة بأمر رحلته إلى المغرب "(83). أي أن تأسيس الدولة

الادريسية تحقق على ارض الواقع كتتويج للعمل الدعائي، والنشاط السياسي الذي استمر ردحا من الزمن قبل وصول إدريس الأول.

من حصيلة ما سبق يمكن القول أن شظايا النسيج الأسطوري الراكد، والمنطمس في أعماق المتن المصدري يستمد مشروعيته وصلاحيته من اعتبارات ترتبط جوهريا بنوايا المؤرخ التقليدي الذي يتفادى عن قصد أوعن غير قصد إضفاء مسوح أسطورية، وخرافية على هندسة مصنفه، إذ يعتقد صادقا أن روايته- بغض النظر هل هي أسطورية أم غير أسطورية- تمثل عين الحقيقة، بل الحقيقة ذاتها. فلا غرو أن يكلف نفسه عناء، ومشقة النبش والحفر عن الأدوات والوسائل القمينة لتلميع شخصية معينة – وقد يكون الشخص مجرد نكرة –أو الدفاع عن قضية ما-وقد تكون القضية مهزوزة –أو إثبات مذهب بعينه – وقد يكون المذهب في أعلى قمة المغالاة.

7- موقع الرؤيا في المتن المصدري

إن استجلاء ترسبات الرؤيا في طبقات المتن المصدري رهين بتفكيك المعنى اللغوي، والمغزى الرمزي لألياف خيوطها.

تؤدي الرؤيا لغويا "معنى النظر بالعين والقلب، وهي مصدر لما يراه النائم."(84)، وقد وردت في القرآن الكريم بمعان متعددة منها قوله تعالى "إذ يريكم الله في منامك قليلا" .

وتتغيا تيمة الرؤيا في الخطاب الصوفي "إنتاج حقيقة من الحقائق تعرض أمام الرائي فتتبين له الحلول التي يمكن أن يكون محتاجا إليها، أو المسائل التي يجوز أن يكون طالبا معرفتها أو إخبارا بالمشاكل والعقبات التي يعجز تفسيرها واجتيازها، ويستخير الله فيها أن يلهمه الصواب والحق في التغلب عليها" (85).

ومن علامات صدق الرؤيا تكرارها وتوافرها، وتطابقها مع الشريعة نصا وسنة، لذلك يعتبرها الصوفية أدنى درجات الكشف أما أعلى درجات في الكشف فهو الوحي" (86).

تأسيسا على ذلك فان السؤال المحوري الذي يفرض نفسه بإلحاح: هل رمزية الرؤيا في حنايا المتن المصدري تحيل أبعادها الدلالية، وإيحاءاتها التعبيرية على تبرير تحققات، وتفسير تمثلات، وتحرير حالات من اجل

إفراغها في قالب يتوسل إنتاج وصفات بديلة قادرة على تقويم ما ينبغي تقويمه وإصلاح ما ينبغي إصلاحه؟

مما لا شك فيه أن رمزية الرؤيا في بنية المتن المصدري ترتبط إفرازاتها وتشكلاتها وتداعياتها بشروط وملابسات لها علاقة وطيدة بظاهرة اجتماعية أو نزعة مذهبية أو نظام سياسي أو قضية اقتصادية، وهي شروط وملابسات تنوس تحقيق فعل التأثير والاندهاش في نفسية المتلقيوتأهيله للانخراط في صيرورة الواقع منخلال تفسير وتأويل الحمولة الرمزية لمغزى الرؤيا، زد على ذلك فان مفعول الرؤيا تتبلور آلياتها، وتتحرك طاقاتها الإيحائية من اجل إعادة بناء المتناقضات، وما يناوش الوعي الشقي من ضغوط متعددة، واكراهات متشعبة.

وعلى قاعدة الضغوط والاكراهات تحبك خيوط الرؤيا، وتقبع علاماتها في سياقات مختلفة وتنصهر فيها أطراف محددة كأصحاب الحل والعقد من زعماء، وفقهاء وعلماء... الخ. وحسبنا دليلا على ذلك الرؤيا التي أوردها عبد الواحد المراكشي في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" وبهذه القرية (أي فنزازة) له حكاية طريفة، وذلك انه وهو بها رأى في المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين علي بن يوسف في صحفة واحدة، قال : ثم زاد أكلي على أكله وأحسست من نفسي شرها إلى الطعام، ولم يزل ذلك بي إلى أن اختطفت الصحفة من بين يديه وانفردت بها، فلما انتبه قص الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه اسمه عبد المنعم بن عشير يكنى أبا محمد. فلما

أتى على آخرها قال: يا بني يا عبد المومن هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك، إنما هي لرجل ثائر، يثور على أمير المسلمين فيشاركه في بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها "(87).

إن تشريح هذه الرؤيا وتفكيك منطقها الداخلي يخول إمكانية الخروج بالملاحظات التالية:

* إن الصحفة تمثل الكلمة – المفتاح لضبط وتحديد دلالة ومغزى الرؤيا حيث تحيل رمزيتها والحالة هذه على مكون المكان، والمكان هنا يقصد به المغرب.

* أن ابتلاع الطعام بطريقة شرهة يرمز إلى هشاشة فسيفساء صرح الدولة المرابطية التي هي عبارة عن تمثال ضخم يقف على أرجل من طين، أو بكلمة أكثر وضوحا وجلاء سهولة انتزاع الحكم من أيدي أمراء الدولة المرابطية.

* إن توظيف الرؤيا يعتبر مكونا جوهريا من مكونات العمل الدعائي، والنشاط السياسي الذي يفضي إلى بوابة الحكم.

وفي السياق ذاته يورد البيدق رواية أخرى تتقاطع إحداثياتها شكلا ومضمونا مع رواية المراكشي" وذلك انه لما خرج الخليفة أمير المؤمنين مع عمه رضي الله عنهما جدا حتى وصلا متيجة، فنزل بها عند الفقيه أبي الرؤيا، وارتحلا حتى وصلا لبني زلدوى فرأى المنامة بعينها إلا أن الصحفة على رأسه والناس يأكلون منها، زكريا وأخيه صنغ فأقاما بها أياما حتى أن الله تعالى أرى منامة

للخليفة رضي الله عنه، وذلك انه رأى صحفة من طعام على ركبتيه يأكل منها الناس كافة. فلما أصبح قال لعمه، يا عم رأيت كذا وكذا فقال له اكتم هذه فلما أصبح اقبلا يجدان السير حتى نزلا بجاية(...) ولما وصل الخليفة رضي الله عنه بجاية وجن عليه الليل قرأ حزبه وصلا ورده في تلك الليلة ثم نام فرأى الرؤيا بعينها إلا أن الناس يبايعونه. فلما أفاق اعلم عمه بها. فقال له اكتم هذا الأمر فانه رأت أمك وهي بك حامل كان النار تخرج منها وتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف. فقال لها المعبر بتلمسان. لا بد لهذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ المشرق والمغرب والقبلة والجوف. ولكن اكتم هذا الأمر ولا تعرف به إنسانا. و كذلك قال لي أبوك علي، وقد رأيت في أمرك موعظة. كنا نحصد الزرع وأمك بك حامل، فجاءت للفدان واضطجعت نائمة، فاقبل بندان من نحل فنزلا على أمك فلما خلقت، أتت أمك الفدان فلقطت السنبل وتركتك نائما فنزل أيضا عليك النحل أكثر مما كان نزل على أمك وأنت في جوفها، ثم قام النحل عنك وافترق فرقتين واحدة للمشرق وأخرى للمغرب فقال علي. الله اكبر هذا هو الذي قال الفقيه بتلمسان، فلما رجعنا من الفدان قال لامك احفظيه فان لا بد له من الأمر الذي ذكره الفقيه المفسر، فكانوا ينتظرون منه حتى بلغ مبلغ الرجال(...) فلما سمع رضي الله مقالة عمه قال له يا عم اخرج مع الناس أرى هذا الفقيه السوسي، وأقول له هذه المنامات وهذا الأمر واسأله في أحوال الديانات و الواجبات"(88).

وعلى غرار المكونات المتحكمة في رواية صاحب المعجب تتركب رواية البيدق من الأنسجة التالية:

* إن حضور تيمة الكتمان في موضوعة الرؤيا يستوجب النبش عن حمولتها الدلالية، فالكتم يفيد الحرص على السرية والحجب،" وعدم كشفه إلا لأهل الطريق من الأولياء والعلماء خوفا على العامة من الافتنان أو فهمه بغير المقصود به"(89) وإذا كان الكتم سرا لا يجب تسريبه وتصريفه فهذا يعني أن هناك أمورا وخططا يتم التحضير والإعداد لها، وما الرؤيا إلا ذريعة ورافدا من روافد العمل الدعائي لمشروع سياسي قيد المخاض.

* إن حضور تيمة النار في موضوعة الرؤيا يرمز إلى التطهير والتجديد والحياة والاستمرارية الأمر الذي يوحي أن المشروع السياسي الموحدي يشق طريقه بإصرار لتقويض أركان الحكم القائم.

* إن حضور الأم والأرض في موضوعة الرؤيا يمثل وجهان لعملة واحدة، فهما يرمزان للخصب والنماء والاستمرارية والتجديد، والتبشير بواقع جديد يؤسس على انقضاض واقع يجار بالشكوى من أوحال الانتكاسات والاختلالات والانحرافات ...الخ

* تشير رمزية النحلة إلى "التنظيم الدقيق، والترتيب المحكم، والسرية المطلقة" (90) الأمر الذي يؤشر أن المشروع الاديولوجي الموحدي قيد التكوين مسيج بالسرية التامة ويؤسس وفق شروط مضبوطة ودقيقة.

صفوة الكلام يمكن القول أن موضوعة الرؤيا تروم إنتاج خطاب سياسي يستند على إستراتيجية جديدة تتجاوز خطوط الوضعية القائمة المسكونة بهاجس "الديكتاتورية" العصبية، والانحراف الديني، والإفلاس الاقتصادي، والانحلال الاجتماعي، ومما ينهض قرينة على الشرخ والتصدع الذي ينخر جسم الدولة المرابطية، إشارة صاحب المعجب مثلا إلى التفسخ والانحلال الاجتماعي حيث يقول "واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالا شديدا، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل إمرة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله، ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار،(...) وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال "(91).

8- التاريخ والشعر

تطرح الأشعار القابعة بين ثنايا تلابيب المصنفات التاريخية تساؤلات كبرى، وإشكاليات مركبة ترتبط جدليا بأس وماهية العلاقة بين الشعر والتاريخ. هل هي علاقة تقاطع و تفاعل؟.

بمعنى هل يمكن للتاريخ ان يخترق ذاكرة الشعر وبنائه التخييلي، دون المس بوسائله وادواته؟ هل يمكن للشعر ان يرتد عن عوالمه التخييلية و ينخرط في أسئلة التاريخ؟.

يتقاطع الشعر مع التاريخ من حيث البناء الهيكلي للفعل التاريخي، أي أن الشعر ذاكرة حاملة لتاريخ الشعوب وأيامها وأخبارها وملاحمها وغزواتها... الخ. وليس أدل على ذلك قول ابن عباس اذا أعياكم تفسير اية الله فأطلبوه في الشعر فإنه ديوان العرب، وبه حفظت الأنساب، وعرفت المأثر، ومنه تعلمت اللغة. فكذلك التاريخ فهو يعتمد على تأريخ الاحداث وإعادة بنائها وفق مقاصد ايديولوجية محددة. وتكون الحصيلة النهائية ان كلا منهما يسعى لتقعيد متواليات الحدث وصناعته تبعا لوسائله وادواته الخاصة.

ولا شك ان هذا التقاطع على مستوى البناء الهيكلي هو الذي يفسر إستكثار الوزير لسان الدين بن الخطيب من الشعر لكونه في نظره من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عذابات أفنانها (92). واستشهاد عبد الواحد المراكشي في معجبه بأكثر من 770 بيت شعري،

والامر عينه ينسحب على أغلب المصنفات التاريخية، مما يدل ان كان الامر يحتاج الى دليل ان حضور الشعر في المتن المصدري يكتسي دلالة وظيفية مؤداها إثارة العواطف والانفعالات في نفسية المتلقي، او كما قال الشاطبي في كتابه الموافقات ان كتاب الطبقات الصوفية ينتزعون معاني الاشعار ويضعونها للتخلف بمقتضاها، وهو في الحقيقة من الملح لما في الاشعار الرقيقة من إحالة الطباع، وتحريك النفوس الى الغرض المطلوب، ولذلك اتخذه الوعظ ديدنا وأدخلوه في أثناء وعظهم (93).

خلاصة القول ان الشعر كجنس أدبي تنطوي موضوعاته على حقائق تاريخية جاثمة في مكونات انسجته الامر الذي أهله ليكون مصدرا أساسيا من مصادر الكتابة التاريخية.

9- الكرامة الصوفية والمتن المصدري

تحتضن المصادر الدفينة، أو ما يصطلح عليه مارك بلوخ بالمصادر اللاإرادية ظواهر تاريخية مشبعة بدلالات ورموز ذات خصائص وظيفية وبنيوية، قسط منها يصح أن يعتمد عليه بوصفه وثيقة تاريخية، وهذا ما يقربها من التاريخ، وقسط اخر منها هو اقرب الى الاسطورة منه الى التاريخ. وهذا القسط هو ما يعطي لهذا النوع من المصادر هويتها وتميزها(94)، ومن هذا القبيل الكرامات الصوفية، اذن ما المقصود بالكرامة الصوفية؟ وما هي دلالاتها ومفهومها الاجتماعي، وعلاقتها بالتاريخ؟.

يعرف محمد مفتاح الكرامة الصوفية بأنها أمر خارق للعادة، غير مقرون بدعوى النبوة والتحدي يظهره الله على أيدي أوليائه(95). وبهذا المعنى فالكرامة الصوفية تحوي امورا خارقة للعادة، وتظهر على يد رسله وأوليائه، وتتعذر معارضتها من الانسان العادي، وتكون موافقة للسنة النبوية، ومصدقة لها، وتكون أحيانا نتيجة للتحدي(96).

كما تحمل تركيبتها من جهة حكايات كرامية، ومكاشفات صوفية، وبيوغرافيا الاولياء وما يندغم في بوتقتها من ظواهر تاريخية اقتصادية واجتماعية ودينية... الخ. ومن جهة ثانية تقترب بنيتها الحكائية من الأدب الشعبي المتميز بشفاهية النص، ونقله عن طريق التداول، وتوظيف الحيوان في القصة مما يقترب من

الكليلـــدمنات، وتقتـــرب أيضـــا مــــن المــــزاعم الشـــعبية كإمكانيـــة تحـــول الحجـــم الكبيـــر الـــى صـــغير او العكـــس، او اعطاء الروح للحيوان وتسخيره... الخ(97).

يستشــــف اذن ان الكرامـــة الصـــوفية تمـــتح هويـــة تســـويغاتها مـــن الاســـطورة والتـــاريخ ويـــنهض دلـــيلا علـــى ذلـــك المثالين التاليين :

* يســـوق ابـــن الزيـــات التـــادلي حكايـــة كراميـــة قوامهـــا أن يخلـــف بـــن تـــادكو الهســـكوري المعلـــم بمســـجد الاحســـن قـــال : "مـــر بـــي عبـــد الخـــالق فقـــال لـــي : عزمـــت علـــى زيـــارة ابـــي عبـــد الله فاذهـــب معـــي اليـــه، فلمـــا وصـــلنا اليـــه نزلنـــا عنـــده، وكانـــت عادتـــه الا يبيـــت مـــع أضـــيافه، فـــإذا أحضـــر لهـــم مـــا يحتـــاجون، تـــركهم فـــي مكـــانهم وانصـــرف عـــنهم. فلمـــا كـــان وقـــت الســـحر جـــاء ابـــو عبـــد الله الـــى البيـــت الـــذي بتنـــا فيـــه فقـــال لعبـــد الخـــالق : اذهـــب بنـــا لنتوضـــأ مـــن البحـــر. فـــذهبا فتبعتهمـــا إلـــى أن وصـــلا الـــى البحـــر. فـــدخلا فيـــه وهمـــا يمشـــيان علـــى المـــاء، فـــأردت أن اتبعهمـــا، فغلبنـــي المـــاء فوقفـــت. فالتفـــت الـــي عبـــد الخـــالق فقـــال لـــي ارجـــع واجلـــس علـــى الشـــط حتـــى نرجـــع... فقـــال لـــه ابـــو عبـــد الله وهـــل تبعنـــا الا لينـــال مـــن بركتنـــا. فقـــال لـــي يـــا يخلـــف تعـــال فتبعتهمـــا امشـــي معهمـــا علـــى المـــاء الـــى ان وصـــلنا جزيـــرة فـــي البحـــر. فـــدخلنا فيهـــا الـــى ان وجـــدنا عينـــا مـــن المـــاء فتوضـــأنا منـــه. فقـــال أبـــو عبـــد الله : هـــذه العـــين هـــي عـــين فطـــر ورثتهـــا عـــن أبـــي عـــن جـــدي وأرجـــو ان تـــورث عنـــي، وبهـــذه العـــين ســـميت قريتنـــا، وانـــت يـــا يخلـــف قـــد شـــاهدت مـــا شـــاهدت فـــاكتم علينا حتى نموت"(98).

إن قـــراءة فاحصـــة لهـــذه الحكايـــة الكراميـــة تخـــول امكانيـــة تحصيل الكثير من الرموز والايحاءات

- تفســر الحكايــة بالنســبة لمــن لا يعــرف جغرافيــة المنطقــة بــأن لا وجــود لعــين هنــاك، ولا لمــاء حلــو، وانمــا مغــزى الكرامــة هــو الرغبــة فــي المــاء لندرتــه فــي تلــك المنطقــة، فعبرت عن حالة نفسية واشبعتها(99).
- يــدل الوضــوء علــى التطهــر، وإزالــة النجاســة، وغســل الذنوب، وتهيئ النفس للحياة النقية(100).
- يرمــز المــاء ســواء كــان بحــرا أو عينــا للتجــدد والاســتمرارية، وانبعــاث حيــاة جديــدة، كمــا ان حكايــة المشــي علــى المــاء تــؤدي معنــى الســمو والرغبــة فــي تطويــع نظام الطبيعة.
- ترمــز البركــة للنمــاء والزيــادة والعلــو والســعادة، وهــي بالتــالي حالــة تنقــل الانســان او غيــره مــن وضــع دنيــوي الــى وضــع مقــدس بفضــل ذلــك النمــاء أو تلــك الزيــادة، وتكــون نتيجــة هــذا العلــو تلــك الســعادة والتشــريف والكرامة التي يتمتع بها ويمتع بها(101).
- إن الكرامــة لا تتحقــق إلا بــالكتم، والكــتم بــرزخ بــين الحيــاة والمــوت ومــا بينهمــا تكتســب الكرامــة رمزيــة وجودها واستمرارها زمكانيا.

*وفــي حكايــة كراميــة اخــرى ســاقها صــاحب التشــوف فــي ترجمــة احــد الصــالحين ويــدعى ابــو وكيــل ميمــون بــن تاميمونــت الاســود جــاء فيهــا : "إن المطــر احتــبس فــي وقــت نزولــه وقلــت الميــاه. فكــان النــاس يرحلــون مــن بلادهــم الــى مواضــع الميــاه. فــأمر ابــو وكيــل قومــه ان يســتقوا مــن

الحفرة التي اعدها لماء المطر. فقالت له زوجته: ما هذا الذي تفعله؟، اتريد أن يتم الماء فنرحل كما رحل الناس؟ فأعرض عن قولها. فلما نفذ ماؤه اتت اليه وقالت له: انظر في الرحيل فقد نفذ ماؤنا. فجاء الى خيمته لينفضها ويرحل. فأمسك حبلا منها ورمق بطرفه السماء وقال: اغثني يارب يا مغيث. فنشأت سحابة صغيرة وهمهم الرعد وتدلى السحاب وهطل بالامطار، فروي الناس وامتلأت صهاريجهم فرجع الناس الى بلادهم"(102).

تحبل الحكاية الكرامية الانفة الذكر بالكثير من الدلالات والايحاءات نوجزها في الاتي:

- يفسر انحباس المطر في المخيال الشعبي بعقاب رباني، وبين العقاب الطبيعي والعقاب الرباني تنتصب وتتدخل بركة الاولياء لتحقيق فعل الانفراج، وتغيير مجرى الحوادث والاشياء.
- يرمز الماء لشيء ثمين لذلك استمر الالحاح عليه باعتباره محور الرغبة والبحث، او بالاحرى محور التوازن المنشود (103).
- تؤشر الرغبة الجامحة الى الماء في حد ذاتها رغبة المحافظة على الحياة والخوف من الموت. وبهذا يصدق ذلك القول تاريخ الخارق هو تاريخ الخوف (104).

ومما تجب الاشارة اليه ان الحكايتين الكراميتين السابقتين مجرد غيض من فيض، اذ تزخر كتب التراجم والتصوف -خاصة التشوف الى رجال التصوف لابن الزيات، وأنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ،

والمنهاج الواضح في تحقيق كرامات ابي محمد صالح لابي محمد صالح، والمقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف لعبد الحق البادسي وغيرهم ممن تنبو عن ذكرهم هذه السطور الشحيحة -بجزئيات وتفاصيل حكايات كرامية لأولياء ورجال الصلاح يطوفون عبر أرجاء الزمان والمكان، يعلمون ما لا يعلمه احد، يعرفون ما في الارحام، يحيطون بكل صغيرة او كبيرة في حياة اتباعهم، لا يخفى عنهم ما يعلن هؤلاء وما يسرون، يتوقعون كل ما يمكن ان يحدث، يقدرون على تغيير مجرى الحوادث والاشياء، يشفون من الامراض المستعصية التي لا ينفع فيها علاج طبي، يحلون اعقد المشاكل التي يعجز عن حلها أصحاب العلم و الذكاء والقوة والدهاء، يستطيعون ان يطعموا جيشا بأكمله من رغيف واحد، في امكانهم ان يفجروا الينابيع من اناملهم او من الصخر، ان يستخرجوا الذ الطعام وافخره من الرمل وأن ينزلوه من السماء، ان يكونوا في حضرة من يشاؤون او ان يكون في حضرتهم من يريدون، أن يتخذوا الشكل او الحجم الذي يشتهون، أن يروضوا الحيوانات المفترسة وان يصاحبوا الجن، أن ينالوا كل ما يريدون في الوقت الذي يتمنونه، لا شيء خيرا كان او شرا.. هذه هي البركة التي ترويها الحكايات المتداولة عن كرامات الاولياء التي وسعت كل شيء (105).

10- الجهل بالحقيقة التاريخية

مما لاجدال فيه أن المتون المصدرية بمختلف أنواعها تنوء تحت وطأة مجموعة من الأخطاء والهفوات الناجمة أساسا عن التسرع في تسويد المعطيات، وتحبير المعلومات دون وضعها تحت مجهر التحقيق، ومحك المساءلة.

بناء على ذلك يطرح السؤال نفسه: هل النسق التاريخي للحصيلة الكرونولوجية مطابقة أم غير مطابقة للواقع صحيحة أم غير صحيحة؟ أو بمعنى أخر هل الحصيلة الكرونولوجية موسومة بميسم الأمانة الموضوعية أم أنها تعرضت للتعديل، والقص، والتلصيق حتى تستقيم ومنطق السياق التاريخي؟

سؤال يجرنا إلى تأصيل الضوابط المتحكمة في صيرورة المتن المصدري والتي يمكن حصرها في عاملين متلازمين زمني ومكاني.

فالعامل الزمني يثير إشكالية ترتبط عضويا بمستوى تقعيد تاريخية الحدث المراد توثيقه، أو بعبارة أخرى هل الإخباري شاهد عيان وعلى إلمام، ودراية شاملة بمجريات الحدث أو انه من الأطراف الفاعلة في صناعته وتأثيثه أو انه يجمع بين الأمرين معا؟

ويتفرع عن هذا السؤال سؤال آخر يحيل عليه ويكمله في نفس الآن :هل الإخباري صنف من ذاكرته، وخارج

منظومــة الفعــل التــاريخي، أم أنــه صــنف هيكــل القالــب الحدثي على حساب ومسؤولية الغير ؟.

بيـد أن الإعتمـاد علـى روايـة الغيـر مـن شـأنها أن تثيـر سـؤالا استفهاميا آخـرا هـل غربـل روايـة الغيـر أم انـه استنسـخها بطريقـة ميكانيكيـة صـرفة؟ هـل راعـى الفـارق الزمنـي بـين زمـن كتابـة الروايـة وزمـن وقـوع الحـدث الكـامن فيـه؟ إلـى جانـب هـذا المسـتوى فـي ضـبط "الحـدث التـاريخي" هنـاك مسـتوى آخـر يقتـرن بمحتـوى ومضـمون "الحـدث" فـي حـد ذاتـه "فقـد يكـون الـنص منحـولا ولكـن معلوماتـه صـحيحة وقـد يكـون غيـر منحـول ولكـن ملـيء بالأخطـاء "(106) وهـي معادلة تتطلب نوعا من الفطنة وحضور البديهة .

أمـا العامـل المكـاني فيطـرح هـو الآخـر استفهامات عريضـة هـل الإخبـاري علـى بينـة مـن جغرافيـة مفاصـل المكـان التـي يـدور عليهـا "الحـدث"؟ أو بعبـارة أخـرى هـل ينحـدر مـن جغرافيـة المكـان قلـب الحـدث أم انـه مجـرد زائـر لـيس إلا؟ إذا سـلمنا جـدلا انـه يحمـل هويـة المكـان فهـل سـجل الحـدث بصـدق و أمانـة أم انـه أضـفى عليـه مسـحة ذاتيـة صـرفة لا تخلـو مـن ذبيـب النعـرة والتحيـز؟ أمـا إذا كـان مجـرد زائـر فهـل نقـل الحـدث بعلاتـه، وبشـفافية وموضوعية، وبعيدا عن الأهواء والشوائب الضيقة ؟

ويمكـن أن نعمـق السـؤال أكثـر لنتسـاءل مـن المسـلم بـه أن كوكبـة مـن الإخبـاريين المشـارقة أفـردوا صـفحات لا يسـتهان بهـا عـن تـاريخ المغـرب هـل هـذه الصـفحات مطبوعـة بطـابع الأمانـة والموضـوعية؟ أم أنهـا تضـج بـالتحريف والتزويـر؟ هـذا مـع الأخـذ بعـين الاعتبـار أن

الإخباري المشرقي استشف " الحدث" عبر ثلاث قنوات أساسية إما عن طريق تسجيل رواية شفوية تتراوح والحالة هذه بين الصدق، والكذب أو عن طريق الاعتماد على مصادر متنوعة المشارب الاديولوجية وإما عن طريق المعاينة المباشرة.

من حصاد ما سبق يمكن القول أن منحى الأخطاء والهفوات التي تعتمل المتن المصدري صادرة إما عن جهل مطبق أو علم مقصود، وإما عن سهو مكشوف أو اختلاط وتضارب مفضوح، وحسبنا دليلا على تفاعل وتلاقح هذه المستويات مجتمعة نسوق أمثلة بيانية تأكد مشروعيته وصلاحية ما نذهب إليه.

* يتحدث ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان نقلا عن أبي الأصبع سعد الخير الأندلسي عن مدينة مكناس قائلا" وبالمغرب بلدة أخرى مشهورة يقال لها مكناسة الزيتون حصينة مكينة في طريق المار من فاس إلى سلا على شاطئ البحر، وفيه مرسى للمراكب و منها تجلب الحنطة إلى شرق الأندلس" (107).

* يتحدث الحسن الوزان عن إقليم تامسنا قائلا " وثار هذا الإقليم عن 323 للهجرة بتحريض داعية مبتدع يدعى حاميم بن من الله" (108).

* وفي مقام آخر يقول "وفي أيام أبي سعيد آخر ملوك بني مرين" (109).

نستشف من نسيج الأمثلة الانفة الذكر ملاحظتين أساسيتين :

- بما أن ياقوت الحموي نقل حرفيا إيماءة ابن الأصبع فهذا يعني أن كل خطا وقع فيه هذا الأخير إلا وقع هو

فيـــه، كمـــا أن الخطـــأ ذاتـــه سيســـري مفعولـــه علـــى بقيـــة المصـــادر اللاحقـــة، ولعـــل مـــن المفارقـــات الغريبـــة التـــي تطفـــو علـــى الســـطح لأول وهلـــة هـــي: لا يعقـــل صـــراحة أن تموقـــع مكنـــاس علـــى شـــاطئ البحـــر وفـــي نفـــس الآن – وهـــذا هـــو بيـــت القصـــيد - تعتبـــر مـــن المواقـــع الأكثـــر شـــهرة حســـب مـــا جاء في النص.

- كـــل خطـــا فـــي البدايـــة يقـــود جـــدليا إلـــى خطـــا فـــي النهايـــة، وهـــــذه القاعـــدة العلميـــة تنســـحب علـــى مصـــنف الحســـن الـــوزان حيـــث تتشـــعب وتتـــواتر خطـــوط الأخطـــاء والهفـــوات علـــى امتـــداد فصـــوله وأبوابـــه، ولا أدل علـــى ذلـــك مـــن عتبـــة الهوامش التي ذيل بها.

غيـــر أن توظيـــف مظـــان تاريخيـــة رديفـــة يتـــيح إمكانيـــة الوقـــوف علـــى صـــلب وخبايـــا الأخطـــاء المنشـــورة بـــين طياتـــه وهكـــذا، فالصـــواب حســـب المـــادة المصـــدرية التـــي تفيـــد أن حـــاميم المتنبـــئ ظهـــر بجبـــال غمـــارة قـــرب تطـــوان عـــام 312 هـــ أمـــا تامســـنا فثـــارت بهـــا قبائـــل برغواطـــة بزعامـــة صـــالح بـــن طريـــف عـــام 127 هـــ . أمـــا بالنســـبة لآخـــر ملـــوك الدولـــة المرينيـــة فهـــو عبـــد الحـــق ابـــن ســـعيد الـــذي ثـــار عليـــه الشعب و قتله عام 869 هـ_ 1465م.

خلاصـــة الكـــلام أن الأخطـــاء والهفـــوات التـــي ســـقط فـــي كمـــين حبالهـــا الحمـــوي والـــوزان وغيرهمـــا كثيـــر تمثـــل مجـــرد غـــيض مـــن فـــيض حيـــث تـــرزح معظـــم المصـــادر الكلاســـيكية تحـــت ســـنابك المغالطـــات، والمفارقـــات، والمزالـــق ناهيـــك عن القصورو المحدودية والابتسار.

11- المؤلف المجهول

تذيل قائمة من المتون المصدرية التي بين أيدينا بعنوان "المؤلف المجهول"، ولا نملك من الأدلة الدامغة، والبراهين المنطقية أسباب، وخلفيات عدول وعزوف المؤلف عن ذكر اسمه ونسبه- رغم أن الاسم في منظور العلوم الإنسانية يؤدي وظيفة مزدوجة تعيينية واشهارية، كما أن للاسم ذاكرة ثقافية قائمة الذات – هل أسباب وحيثيات ذلك مرتبطة اشد الارتباط برغبة ذاتية دفينة تكمن في التحصن بالسرية ضمانا وحفاظا على حياة المعني بالأمر؟ أم يمكن إرجاء ذلك إلى عامل موضوعي يقترن بالخروم، والبتر والمداد الابهت الذي اتلف الاسم بل وعفى على سطور وصفحات بكاملها؟ أم أن عصر المؤلف بإفرازاته السوسيو- اقتصادية وتفاعلاته السياسية، وتموجاته الفكرية حال دون نقش الاسم والنسب؟ مهما يكن من أمر الاجتهادات والمحاولات التي تجشم عناءها المحققون للكشف عن مؤلفي هذا النوع من المصادر اعتمادا على مقاييس الأسلوب والمنهج فان حصاد المقاربات تبقى في نهاية المطاف قاب قوسين أو أدنى من تأصيل هوية المؤلف.

ودون الاسترسال في تقعيد الأسباب والخلفيات الكامنة وراء تغييب الاسم لا محيد من تسطير عناوين بعض المتون المصدرية الأكثر استهلاكا عند عموم الدارسين والباحثين.

* الاستبصار في عجائب الأبصار: "اشترك في تأليفه مؤلفان مجهولان يعتبر أولهما الواضع للكتاب ثم قام

بإخراجه -مع إضافات جديدة- كاتب ثاني يعنون زياداته بكلمة قال الناظر"(110).

* مفاخر البربر "لمؤلف يترجح انه مغربي، وكان بقيد الحياة عام 712 هـ/1312م " (111).
* الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية " وكان بقيد الحياة عام 710 هـ / 1310 م " (112).
* الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. نسب في طبعته الاولى غلطا الى لسان الدين بن الخطيب، وينسبه البعض الى ابن سماك العامري، غير انه من المؤكد ان المؤلف كان يعيش اواخر المائة الهجرية الثامنة حيث يذكر اواخر الكتاب انه الفه يوم الخميس 12 ربيع الاول 783 هـ / 1381م. (113)
* تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية ألفه صاحبه في حدود عام 1090 هـ 1606م 1607 م
* ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم "مؤلفه غير مذكور، وينسبه البعض لإسماعيل ابن الأحمر، على أن البعض ادمج فيه زيادات تتأخر عن عصر ابن الأحمر"(114).
* المغرب عن سير ملوك المغرب. فرغ منه صاحبه بالموصل في ذي القعدة سنة 599 هـ /1203م .(115)
* بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس واستاذ وطبيب. وهو يوقت تاريخ الفراغ من التأليف في 26 صفر عام 820 هـ / 1417م . (116)
* الابتسام عن دولة ابن هشام. مؤلفه غير مذكور ويسميه البعض بإدريس الجعايدي. بينما يذكر المؤلف انه انتظم في سلك الكتاب في البلاط الرحماني سنة 1254هـ. واخر تاريخ يشير اليه هو سنة 1266 هـ /1850 م .(117)

12- إشكالية الحديث النبوي

يحتضن المتن المصدري أحاديث نبوية معنعنة عن محاسن وفضائل المغرب وخصائصه ومميزاته، وهي أحاديث تطرح أكثر من علامة استفهام حول مسألة تطابقها وانسجامها مع المقاييس والمعايير المعمول بها من قبل أئمة الفقه، وعلماء الحديث والأصول.

من هذا المنظور يجمع اغلب رواة الحديث والأصول أن أقسام الحديث ثلاثة أنواع، الصحيح والحسن والضعيف. فالحديث الصحيح "هو المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط قد ينتهي إلى رسول الله (ص) أو إلى منتهاه من صحابي أو من دونه، ولا يكون شاذا ولا معللا"(118).

والحديث الحسن "هو ما اتصل سنده بنقل عدل خفيف الضبط، وسلم من الشذوذ و العلة "(119).

أما الحديث الضعيف فهو "ما لم يجتمع فيه صفات الصحيح ولا صفات الحسن"(120).

إن هذا التقسيم الثلاثي وما ينصهر في بؤرته من أحوال ترتبط بالراوي والمتن يجرنا إلى إثارة سؤال مركزي، هل الأحاديث المنسوجة حول المغرب من صنع خيال المؤرخ التقليدي الذي يتفنن في الغالب الأعم على اقتناص الترهات والأكاذيب والركوب عليها لغرض في نفس يعقوب؟

أم أنها أحاديث تستقيم وتتسق والمعايير الضابطة المعمول بها؟ جواب هذا السؤال يتوقف على جرد عينة منها ثم مناقشتها على ضوء التقسيم الطبيعي المتفق عليه.

- روي عن رسول الله (ص) انه قال "لا تزال طائفة من أمتي بالمغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة"، ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله (ص) قال: لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " (121).

- وفي المصنفات الصحاح من رواية سعد بن أبي وقاص وغيره أن رسول الله (ص) قال "لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة" (122).

- روي عن عمر بن الخطاب قال: "كنت مع حبيبي رسول الله (ص) في بعض مغازيه، فنظر الي ابكي فقال لي: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: يا رسول الله (ص) قلة الاسلام في الامم، وما أرى من كثرة الشرك فقال لي ابشر يا ابن الخطاب ان الله سيعز الاسلام والدين بقوم يأتون من المغرب، واشار بيده نحو المغرب، ليست لهم مدائن يتحصنون فيها، ولا اسواق يتبايعون فيها، ولا علامات يقتدون بها".(123)

- وعن النبي (ص) انه قال: "ان لله انصارا ولذريتي، فأنصاري الانصار الذين أووا ونصروا وانصارا ذريتي البربر أووهم وبروا واكرموا".(124)

- وروي ان فاطمة بنت رسول الله (ص) امرت جارية لها ان تتصدق بصدقة فقالت لها: اذا قبلت الصدقة منك فاسألي الذي يأخذها منك، من هو وفي أي بلد مسكنه؟ قال فخرجت الجارية بالصدقة فقالت: من يقبل صدقة ال رسول الله (ص) فقام رجل فقال لها انا موضع صدقة ال رسول الله (ص) فقالت له من اين انت؟ وفي أي بلد مسكنك؟ قال لها: انا من ولد بر فأعطته الصدقة ورجعت مسرعة الى فاطمة رضي الله عنها، فأخبرتها فقالت: اخذ الصدقة ال رسول الله (ص) رجل من البربر فقالت لها علي بالرجل فلحقته الجارية وقد بلغ اقصى المسلك فقالت له: ايها الرجل ان فاطمة بنت رسول الله (ص) تسأل عنك فرجع البربري خائفا وجلا وهو يقول: قد بدا لها فيالصدقة امر فلما وقف على الباب كشفت القناع عن وجهها وهي باكية وهي تقول : لكل نبي حواري، وحواري ذريتي البربر، اني سمعت رسول الله (ص) يقول يا فاطمة سيقتل الحسن والحسين ويقتلونهم ويجلون اولادهم العرب ويؤونهم البربر، فيا معشر من فعل بهم ذلك، وطوبى لقوم يؤونهم ويحبونهم ويكرمونهم ويعزونهم".(125)

- (... ويكفي من فضلها وشرفها ما ورد عن النبي(ص)فانه وجد في كتاب دارس بن إسماعيل المكنى بابي ميمونة بخط يده رحمة الله تعالى: حدثني علي بن أبي مطر بالإسكندرية قال حدثني محمد بن إبراهيم بن الموازعن عبد الرحمان بن القاسم عن مالك بن انس عن محمد بن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي(ص) انه قال تكون بالمغرب مدينة تسمى فاس أقوم أهل المغرب قبلة، وأكثرهم صلاة، أهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق، لا يزالون متمسكين به، لا يضرهم من خالفهم، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة "(126).

-- جاء في كتاب المنهل الأصفي للسيد أبي عبد الله محمد بن علي ابن أبي الشريف التلمساني حكاية عن الشيخ المنصور بن علي اللجائي عن أبيه وغيره وشيوخه قال : " إنما كانت المصامدة فيهم بركة لأنه وفد منهم رجل على رسول الله (ص) قال الحاكي عن منصور : هكذا سمعته يقول رجل وذكرته لمن يفتني بالعلم والخير من المصامدة فقال: بل هما رجلان، وسألته عن أسمائهما فقال لا أدري، ولكن شيوخنا أخبرونا بأنهما رجلان، وذكر لي قوم أنهم سبعة وأن قبورهم موجودة إلى الآن ثم ذكر تتمة الحكاية عن منصور بدخول [الرجل] على رسول الله (ص). فسأل عنه بلسانه البربري ولم يكن يعرف العربية وأجابه الرسول عليه الصلاة والسلام بمثل لسانه ثم لازال يجيبه عما يقول بلغته البربرية حتى أسلم وبايع وانصرف لقومه ولم يفهم القوم شيئا مما كان يقول فأخبرهم النبي (ص) بقدومه وبلغته وقومه".

أقول والصحيح أنهم سبعة كما ذكر القوم، وقد تصدى عددهم ووفودهم على رسول الله(ص) غير واحد من الأئمة الأكابر، وكلهم ذكروا كلامهم مع النبي (ص) بلغتهم وجوابه لهم بمثلها وعينوا مدافنهم وأسمائهم

وأنهم المعروفون الآن برجال رجراجة القاطنين ببلاد حاحة ولهم فضل مشهور يقصدهم الناس للزيارة من كل فج عميق في كل فصل من فصول السنة، ولاسيما في فصل الربيع يكون الزوار في غاية الفرحة ويتلقاهم أهل كل زاوية من زوايا رجراجة بالضيافة والإكرام وهكذا إلى الآن. ونسبة الصحبة لهم نفعنا الله بهم شائعة ذائعة على ألسنة الناس خصوصا عند [أهل] بلاد ركراكة عموما عند غيرهم.

قال الفقيد السيد الكبير بن عبد الكريم ابن حريرة الشاوي المراكشي في جواب له في أحوال هؤلاء الرجال رضي الله عنهم : " فأما سيدي أبوبكر بن شماس فمدفنه بساحل الشياظمة ببلاد أيت عيسى ويقال لهم أيضا أولاد عيسى والموضع يعرف بأقرمود، وولده سيدي صالح معه في روضة واحدة، وأما سيدي وسمين فمدفنه بجبل الحديد بمعظم بلاد الشياظمة، أما سيدي أبو عبد الله أدناس فمدفنه ببلاد التوابت، وسيدي يعلي بن واطل فمدفنه برباط شاكر بالمعمورة وهو أبو سيدي شيكر المنسوب إليه الرباط المذكور. ومازال الناس بمراكش ورستاقها وأعمالها يقصدون هذا الرباط في ليلة السابع والعشرين من رمضان يحضرون لختم القرآن بجم غفير من أخلاط الناس، وبين الرباط المذكور ومراكش مسيرة يوم، ثم سيدي سعيد بن أبي يبقى مدفنه بطالعة الشياظمة ويقال لمحل دفنه تمازت، ثم سيدي عيسى بوخابية مدفنه على طرف وادي تانسيفت بالقرب من سيدي عبدالله أدناس والله اعلم". (127)

إن تبويب و تصنيف هذه الأحاديث والروايات وفق معايير أئمة الفقه، وعلماء الحديث والأصول مغامرة لا

تخلو من صعوبات وعراقيل، لذلك سنكتفي بإثارة بعض الملاحظات:

- إن الحديث الأول جاء بصيغة مبنية للمجهول، وهذا يعني انتفاء منهج الإسناد الذي يعتبر العمود الفقري للتمييز بين الحديث الصحيح والضعيف، بل تعدد رواياته يضفي عليه طابع الاضطراب، وهي "على تعددها متساوية متعادلة لا يمكن ترجيح إحداها بشئ من وجوه الترجيح" (128)، كما أن صيغة "وغيره" المتعلقة بحديث متعدد الروايات تفيد الإبهام والغموض في بعض حلقات السند، واختلاف روايات الحديث عينه، وسقوط حلقاته في السند كناية على انه حديث ضعيف يجمع بين صفات المنقطع والمضطرب.

- إن الحديث الذي يصف فضائل مدينة فاس لا يخرج عن سياق الأحاديث الضعيفة الشاذة، ومنشأ شذوذه يكمن في الانفراد والمخالفة. لكن إذا ظهر السبب بطل العجب، فصاحب روض القرطاس الذي انفرد بهذا الحديث لا يبطن إعجابه الشديد، وهيامه المفرط بمدينة فاس إلى درجة افتعال الأحاديث النبوية واصطناعها، فلا عجب والحالة هذه أن يطنب ويستفيض في تتبع جزئيات وتفاصيل تاريخها وجغرافيتها، ومحاسنها وأفضالها ، ومياهها وأنهارها، بل أكثر من ذلك ينتقي ابلغ عبارة، وأروع بيان، وأشرق كلم، للبرهنة على فرادة وتميز المدينة.

- إن الأحاديث التي تصف مفاخر البربر وفضائله، وكبريائه الخصوصي لا تخرج عن سياق الأحاديث الموضوعة المنتحلة، إذ لم تثبت روايتها عن الرسول (ص) أصلا في كتب الصحاح، ولعل مصدر افتعالها وانتحالها يكمن قلبا وقالبا في إقامة الدليل والحجة على

شـــرعية الأهـــداف المرســـومة وتبريـــر الأعمـــال المنجـــزة والأفعـــال المحتملـــة. وفـــي نفـــس المنحـــى يصُـــب الحـــديث المســـند للرســـول (ص) عـــن روايـــة فاطمـــة بنـــت محمـــد (ص) إذ لـــيس ثمـــة مـــا يؤيـــد ثبوتـــه فـــي الكتـــب الصـــحيحة وينســـحب الحكـــم ذاتـــه علـــى الحـــديث المســـند للرســـول (ص) عـــن روايـــة عمـــر بـــن الخطـــاب فهـــو حـــديث تـــنم مضـــامين تركيبتـــه علـــى أس الانتحـــال والافتعـــال، وتخفـــي نتوء خلفياته أبعادا اديولوجية محضة.

- إن قـــراءة متأنيـــة لنســـغ روايـــة لقـــاء بربـــر رجراجـــة للرســـول (ص) يطـــرح أكثـــر مـــن ســـؤال، وأكثـــر مـــن علامـــة استفهام يمكن صياغتها على النحو التالي :
  - ينطـــوي نتـــوء الروايـــة علـــى خلـــل تـــاريخي قوامـــه الفاصـــل الزمنـــي بـــين زمـــن كتابـــة الروايـــة وزمـــن وقـــوع الحـــدث الكـــامن فيهـــا، وهـــذا فـــي حـــد ذاتـــه قرينـــة دامغـــة، وحجـــة قاطعـــة علـــى الشـــكوك والاســـتفهامات التـــي تحـــوم حـــول صـــحة وصـــدق المعلومـــات الثاويـــة فـــي ثنايـــا تجاويفهـــا. ففضـــلا عـــن الصـــمت المطبـــق للحوليـــات التاريخيـــة البـــاكرة والتـــي أضـــفت مزيـــدا مـــن الصـــعوبة والتعقيـــد، تنضـــاف أراء بعـــض الكتابـــات الحديثـــة التـــي شـــددت علـــى زيـــف هـــذه الروايـــة، واعتبرتهـــا مجـــرد هلوسات مصطنعة وهرطقات كلامية ليس إلا.
  - ينطمـــر وراء ســـطور الروايـــة شـــكل مـــن أشـــكال التعبيـــر المســـتتر بأســـبقية اعتنـــاق بربـــر رجراجـــة للإســـلام، واشـــاعته بـــين قبائـــل المغـــرب، وفـــي ذات الآن – وهـــذا هـــو بيـــت القصـــيد - الفـــوز بشـــرف التملـــي بطلعـــة الرســـول (ص)، وهـــو مـــا يمـــنح لرجـــالات رجراجـــة الســـبعة جرعـــات رمزيـــة مشـــحونة بمســـوح الولايـــة والصـــلاح والبركـــة

والورع، وغير ذلك من المسوح التي تمتح مفاهيمها وأصولها من الزمن القدسي

- يستشف من نسيج كتب السيرة النبوية انتفاء أي ذكر لما يسمى بالطائفة الرجراجية خاصة وأن مادتها تحفل بتفاصيل وجزئيات عن حياة وأخبار الرسول (ص)، ومختلف الوفود التي حجت إليه من كل حدب وصوب، فكيف تحجم والحالة هذه عن التأريخ لحدث زيارة الوفد المغربي للرسول (ص)؟.
- وبالمثل لم تنبس النصوص المنقبية الوسيطية ببنت شفة في موضوع من الأهمية بمكان كما هو الحال بالنسبة لكتاب التشوف الذي مارس مؤلفه القضاء بأرض رجراجة، وحوت نتوءاته مادة ضخمة عن رجالات الولاية والصلاح والتصوف فهل إعراض كتاب التشوف على التأريخ لسيرة حياة رجالاتها ينم على الولاء المذهبي، والميول السياسية لصاحبه سيما وقبيلة رجراجة تبوب في خانة القبائل المغضوب عليها، وأنها قاومت الحكم الموحدي منذ قيامه بصفة قارة متقطعة بالطبع (129)، أم أن ما يسمى بالطائفة الرجراجية مجرد كيان وهمي من نسيج خيال المصادر المتأخرة، وليس ثمة ما يعضد حقيقة وجودها في المصادر القديمة.

ويتفرع عن هذه الاستفهامات، استفهامات أخرى تلقي عليها المزيد من الأضواء

- هل تأخر انتشار الإسلام في بلاد المغرب إلى زمن (الفتوحات) الإسلامية يعزز فرضية زيف الرواية اذ لو تحقق الامر فعلا لما انتشر الإسلام على الأقل في أرض رجراجة، وهو ما لم تثبته المظان التاريخية الباكرة.

- هل تضمين متن الرواية لجهاز لسني أمازيغي في فعل التواصل بين المرسل (الوفد المغربي) والمتلقي (الرسول ص) ينهض قرينة على هشاشة الرواية وزيفها سيما وكتب السيرة والتراجم لم تذكر بالمرة أن المتلقي كان على علم ودراية وبينة بابجديات اللغة الأمازيغية.
- هل وسم الطائفة لنفسها برجالات رجراجة السبعة ينم في عمقه وجوهره على تمثل وتجسيد للزمن القدسي بالنظر للصفة الرمزية والقدسية التي يعبر عنها الرقم سبعة في الوعي الجمعي الإسلامي.
- هل معنى تسمية رجراجة وماتحمله من دلالات البركة يمنح شرعية الوجود الفعلي للطائفة بغض النظر عن الشوائب التي تتخلل مسار تاريخ كيانها .

خلاصة القول ان لائحة الاحاديث والروايات الانفة الذكر موضوعة ومنتحلة، اوكما يرى الفقهاء ان كل ما خرج عن السنن الصحيح، وخرق قوانين التحديث، وتمرد على قوانين التعديل والتجريح بدعة وضلالة، وكذب وبهتان (130).

خاتمة

مهما يكن من أمر القضايا، والإشكاليات التي تتخلل المصادر التقليدية القديمة فإنها تبقى في نهاية المطاف السند المرجعي الذي لا غنى عنه للمهتم التواق إلى بلورة تصور أولي، أو سبك فرضية معينة، كما أن محدودية، وقصور قيمتها التاريخية لا يعني ضرورة الطعن في نسغها المنهجي وإقصائها من حلبة البحث التاريخي، بل ينبغي الحفر، والنبش في ثنايا تجاويفها لاستبطان ما تختزنه من معطيات اقتصادية واجتماعية وثقافية على قلتها، مع تفادي السقوط في دوامة التأويل البعيد الذي يفضي إلى خلاصات مبتورة، واستنتاجات ناقصة.

الهوامش

(1) العربي كنينح: دراسات في تاريخ المغرب. مطبعة اميمة فاس 2003. ص 8

(2) ابن ابي زرع الفاسي: الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس تحقيق عبد الوهاب بنمنصور الرباط 1972 ص14

(3) العربي كنينح :م.س ص 8

(4) العربي كنينح :م.س ص 8

(5) الحسن الجزنائي :جني زهرة الاس في بناء مدينة فاس تحقيق عبد الوهاب بنمنصور المطبعة الملكية الرباط 1984 ص 98

(6) العربي كنينح :م.س ص 9

(7) ابراهيم القادري بوتشيش: من التاريخ السلطاني الى تاريخ المهمشين: نظرات في تحديد الادوات المنهجية للمؤرخ .مقال منشور ضمن دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة وتاريخ المغرب منشورات المختبرات ط 2011. ص 59

(8) ابن ابي زرع :م.س ص 172-173

(9) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب. ضبطه وصححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ط 7 1967 ص 289

(10) محمود اسماعيل: المهمشون في التاريخ الاسلامي: دار رؤية للنشر ط 1. القاهرة 2004 ص 14

(11) ليفي بروفنصال: مؤرخو الشرفاء. تعريب عبد القادر الخلادي. مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. الرباط ط 1 1977 ص48

(12) ابراهيم حركات: تحريف التاريخ وانحراف العقيدة. منشورات النهضة ط 1 / 1981 ص 30

(13) محمد عابد الجابري: التاريخ والفلسفة. مجلة اقلام العدد 3 ص 32

(14) محمد عابد الجابري: ن.م ص 32

(15) ابراهيم حركات: م.س ص 30

(16) ابراهيم حركات: م.س ص 30-31

(17) ابراهيم حركات: م.س ص 31

(18) عبد اللطيف حسني: الملك ملتهم التاريخ. مجلة وجهة نظر. عدد مزدوج 40-41 / 2009 ص 2

(19) ليفي بروفنصال : م.س ص 52
(20) ليفي بروفنصال : م.س ص 52
(21) ليفي بروفنصال :م.س ص 52
(22) ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي. دار الغرب الاسلامي. بيروت. ط 1 / 1990 ص 38 .
(23) نفسه ص 81 .
(24) نفسه ص 48
(25) نفسه ص 93
(26) نفسه ص 181
(27) نفسه ص 97
(28) نفسه ص 98
(29) نفسه ص 48
(30) مايا تشاتز ميلر : المؤرخون والسلطة في المغرب. منشورات الجمعية المغربية لعلم الاجتماع السياسي. تعريب محمد شقير ومحمد ضريف ص 60
(31) الحسن بن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مأثر ومحاسن مولانا ابي الحسن. دراسة وتحقيق ماريا خسوس بيغيرا. الشركة الوطنية التوزيع والنشر الجزائر ط 1 / 1981 ص 42

(32) عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا في مأثر موالينا الشرفا دراسة و تحقيق عبد الكريم كريم. مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية الرباط ص 4 .
(33) نفسه ص 4
(34) نفسه ص 182
(35) ليفي بروفنصال: م. س ص 81
(36) عبد العزيز الفشتالي : م . س ص 201
(37) عبد العزيز الفشتالي : م . س ص 25
(38) عبد العزيز الفشتالي : م . س ص 25
(39) ليفي بروفنصال : م. س ص 50
(40) ليفي بروفنصال : م. س ص 50
(41) عبد الوهاب بمنصور : مؤرخو الدول بين الامانة التاريخية والالتزامات الوظيفية. مجلة المناهل العدد 36 / 1987 ص 17 .
(42) ليفي بروفنصال : م. س ص 136.
(43) أحمد الشرقاوي اقبال : معلمة المغرب ج 2 ص 632 .

(44) أحمد الكنسوسي / الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي . تقديم و تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي . المطبعة والوراقة الوطنية مراكش بدون تاريخ ج 1 ص12.

(45) أحمد الكنسوسي : م. ن. ج 2 ص 62 -63.

(46) أحمد الكنسوسي: م. ن. ج 2 ص 80 .

(47) أحمد الكنسوسي: م.ن.ج 1 ص 125.

(48) أحمد الكنسوسي : م. ن. ج 2 ص 20 .

(49) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب . صححه و علق عليه محمد سعيد العريان. ومحمد العربي العلمي دار الكتاب البيضاء ط 1 / 1978 ص 200 .

(50) نفسه ص 260-261.

(51) نفسه ص 12-13.

(52) نفسه ص 62 .

(53) مؤلف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية. حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة. دار الرشاد الحديثة البيضاء . ط 1 / 1979 ص 13 ومابعدها.

(54) نفسه ص 187-188.

(55) نفسه ص 13 .

(56) محمد الصغير الافراني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي .تقديم و نحقيق عبد اللطيف الشاذلي. مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1998 . ص 104-105 .

(57) وجيه كوثراني: بعض خصائص الكتابة التاريخية عند العرب . مجلة الفكر العربي عدد 2 / 1978 ص 79 .

(58) محمد الصغير الافراني : م.س ص 130 .

(59) ليفي بروفنصال : م.س ص 52 .

(60) ليفي بروفنصال : م س ص 52 .

(61) مؤرخ مجهول : تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية . تقديم وتحقيق عبد الرحيم بن حادة . الناشر عيون المقالات ط 1 / 1994 ص 69 .

(62) مؤرخ مجهول : م.ن ص 39 .

(63) مؤرخ مجهول : م.ن ص 70 .

(64) عبد الوهاب بن منصور : م.س ص 17 .

(65) مؤرخ مجهول : م.س ص 8 .

(66) ليفي بروفنصال : م.س ص 51 .

(67) ابن عذاري المراكشي : البيان المغري في أخبار الاندلس والمغرب. تحقيق ومراجعة. ج. كولان وليفي بروفنصال. دار الكتاب العلمية بيروت ط 1 / 2009 ص 20 .

(68) محمود اسماعيل : الاسطوغرافيا و الميثولوجيا . رؤيا للنشر والتوزيع ط 1 / 2008 ص 21 .

(69) نفسه ص 28 .

(70) نفسه ص 26 .

(71) الحسن الجزنائي : م.س ص 34-35.

(72) الحسن الجزنائي : م.س ص 34 .

(73) محمد مفتاح : الوظيفة – الفعالية في الكتابة الصوفية. مجلة الزمان المغربي عدد 11 / 1982 ص 16-17

(74) ابراهيم القادري بوتشيش : تاريخ الغرب الاسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع و الحضارة. دار الطليعة بيروت ط 1 /1994 ص 124-125

(75) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير : العصر الاسلامي دراسة تاريخية وعمرانية واثرية. دار النهضة العربية بيروت 1981 ج 2 ص 220

(76) نفسه ص 122

(77) ابراهيم حركات : م. س ص 26

(78) ابن حوقل : صورة الارض. منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ص 73-74

(79) محمود اسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. دار الثقافة البيضاء 1985 ص 13

(80) محمد بن عبد المجيد خان : الاساطير والخرفات عند العرب. دار الحداثة بيروت. ط 2/ 1980 ص 17

(81) ابن ابي زرع : م.س ص 49

(82) نفسه ص 50

(83) محمود اسماعيل : الادارسة في المغرب الاقصى (172 – 375) حقائق جديدة . مكتبة الفلاح للتوزيع والنشر الكويت ط 1 / 1989 ص 59

(84) حسن شرقاوي : معجم الفاظ الصوفية. مؤسسة مختار. القاهرة ط2 /1992 ص 154

(85)نفسه ص 155

(86)نفسه ص 156

(87)عبد الواحد المراكشي : م.س ص 267-268

(88)البيدق : اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1971 ص 14-15

(89)حسن شرقاوي :م.س ص 130

(90)Dictinnaire des symboles. Sous la direction de jea chevalier avec la colloborationdealaingherbant robert laffon p1

(91) عبد الواحد المراكشي :م.س ص 260-261
(92) محمد مفتاح :م.س ص 13
(93) محمد مفتاح :م.س ص 13
(94) محمد مفتاح :م.س ص15
(95) محمد مفتاح :م.س ص 15
(96) محمد مفتاح :م.س ص 15

(97) ابراهيم القادري بوتشيش : الاسلام السري في المغرب العربي . سينا للنشر القاهرة ط1 / 1995 ص 135

(98) ابن الزيات التادلي : التشوف الى رجال التصوف واخبار ابي العباس السبتي. احمد التوفيق . منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية الرباط ط1 /1984 ص 210

(99) محمد مفتاح :م.س ص16
(100) ابراهيم القادري بوتشيش :م.س ص 139
(101) الميلودي شغموم : المتخيل والقدسي في التصوف الاسلامي : الحكاية و البركة . منشورات المجلس البلدي لمدينة مكناس . مطبعة فضالة ط 1/ 1991 ص 20
(102) ابن الزيات التادلي :م.س ص 235
(103) محمد مفتاح :م.س ص 22
(104) محمد مفتاح :م.س ص 24
(105) الميلودي شغموم :م.س ص 47
(106) محمد زنيبر : الاسلام منذ الانطلاقة الاولى الى نهاية الدولة الاموية . وثائق ونصوص . مطابع المغرب الكبير الرباط 1973 ص 23
(107) ابراهيم حركات :م.س ص 26

(108) الحسن الوزان : وصف افريقيا . ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الاخضر. منشورات الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة والنشر الرباط ط 1 / 1980 ص 154

(109) نفسه ص 166

(110) محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب . منشورات كلية الاداب و العلوم الانسانية الرباط 1983 . ج1 ص 44

(111) نفسه ص 67

(112) نفسه ص67

(113) نفسه ص 214

(114) نفسه ص 107

(115) محمد المنوني :م.س ص 104

(116) نفسه ص 188

(117) نفسه . ج2 ص 16

(118) صبحي الصالح : علوم الحديث و مصطلحه . دار العلم بيروت ط1 / 1959 ص 145

(119) نفسه ص 156

(120) نفسه ص 165

(121) ابن عذاري المراكشي :م.س ص 6

(122) علي الجزنائي :م.س ص 5

(123) مؤرخ مجهول : مفاخر البربر . دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية دار ابي رقراق للطباعة والنشر . ط1 / 2005 ص 181-180

(124) نفسه ص 182

(125) نفسه ص 182-183

(126) ابن ابي زرع :م.س ص 15

(127) ابو الربيع سليمان الحوات : الروضة المقصودة و الحلل الممدودة في مآثر بني سودة .دراسة و تحقيق عبد العزيز تيلاني . مطبعة النجاح الجديدة ج 1 / ط 1 / 1994 ص 276 – 277-278 .

(128) صبحي الصالح :م.س ص 187

(129) محمد القبلي : الدولة و الولاية و المجال في المغرب الوسيط : علائق و تفاعل . دار توبقال للنشر ط 1 / 1987 ص 22

(130) محمد مفتاح :م.س ص 15

لائحة المصادر والمراجع

1 – المصادر:

- علي الجزنائي: زهرة الاس في بناء مدينة فاس. المطبعة الملكية الرباط 1972
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب ضبطه وصححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي دار الكتاب البيضاء ط 7/ 1978
- ابن ابي زرع الفاسي: الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس راجعه عبد الوهاب بنمنصور .المطبعة الملكية الرباط ط2/ 1999
- البيدق: اخبار بن تومرت وبداية دولة الموحدين دار المنصور للطباعة الرباط 1971
- ابن حوقل: صورة الارض .منشورات دار مكتبة الحياة اليومية بيروت بدون تاريخ
- الحسن الوزان: وصف افريقيا ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الاخضر. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر الرباط ط1 /1980
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب. تحقيق ومراجعة ج. كولان و ليفي بروفنصيال دار الكتب العلمية بيروت ط 2009/1
- محمد الصغير الافراني: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي. مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1998
- مؤرخ مجهول: تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية .تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة الناشر عيون المقالات ط1994/1
- عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مأثر موالينا الشرفا. دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم. مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية الرباط 1982
- ابن الزيات الشاذلي: التشوف الى رجال التصوف واخبار ابي العباس السبتي. تحقيق احمد التوفيق منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية الرباط ط1 / 1984
- مؤرخ مجهول: مفاخر البربر دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية دار ابي رقراق للطباعة والنشر ط 1 /2005
- أحمد الكنسوسي / الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي. تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي. المطبعة والوراقة الوطنية مراكش بدون تاريخ.

- ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي. دار الغرب الاسلامي. بيروت. ط 1 / 1990.
- الحسن بن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في مأثر ومحاسن مولانا ابي الحسن. دراسة وتحقيق ماريا خسوس بيغيرا. الشركة الوطنية التوزيع والنشر الجزائر ط 1 / 1981.
- مؤلف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية. حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة. دار الرشاد الحديثة البيضاء . ط 1 / 1979.
- ابو الربيع سليمان الحوات : الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مأثر بني سودة. دراسة وتحقيق عبد العزيز تيلاني. مطبعة النجاح الجديدة ج 1 / ط 1 / 1994.

المراجع :

- العربي كنينح : دراسات في تاريخ المغرب. مطبعة اميمة فاس ط2008/1
- محمود اسماعيل : المهمشون في التاريخ الاسلامي. دار رؤية للنشر القاهرة ط2004/1
- محمود اسماعيل : الاسطوغرافيا والميتولوجيا. رؤيا للنشر والتوزيع القاهرة ط2009/1
- محمود اسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن 4 هـ دار الثقافة البيضاء ط1985/1
- محمود اسماعيل : الادارسة في المغرب الاقصى (172-375) حقائق جديدة. مكتبة الفلاح للتوزيع والنشر الكويت ط1989/1
- ابراهيم القادري بوتشيش : تاريخ الغرب الاسلامي : قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة دار الطليعة بيروت ط 1 / 1994
- ابراهيم القادري بوتشيش : الاسلام السري في المغرب العربي سينا للنشر ط1995/1
- ليفي بروفنصيال : مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط ط1977/1
- ابراهيم حركات : تحريف التاريخ وانحراف العقيدة منشورات النهضة ط1/ 1981

- الميلودي شغموم : المتخيل والقدسي في التصوف الاسلامي : الحكاية والبراكة منشورات المجلس البلدي مكناس مطبعة فضالة ط1991/1
- السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير : العصر الاسلامي دراسة تاريخية وعمرانية والربة دار النهضة العربية بيروت ط1981/1
- محمد بن عبد المجيد خان : الاساطير والخرفات عند العرب دار الحداثة بيروت ط1980/2
- حسن شرقاوي : معجم الالفاظ الصوفية مؤسسة مختار القاهرة ط1992/2
- محمد زنيبر : الاسلام منذ الانطلاقة الاولى الى نهاية الدولة الاموية : و ثائق ونصوص مطابع المغرب الكبير ط1973/1
- محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب. منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية الرباط ط1983/1
- صبحي صالح : علوم الحديث ومصطلحه دار العلم بيروت ط1959/1
- محمد القبلي : الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط : علائق و تفاعل. دار توبقال للنشر ط 1 / 1987.
- مايا تشاتز ميلر : المؤرخون والسلطة في المغرب. منشورات الجمعية المغربية لعلم الاجتماع السياسي. تعريب محمد شقير ومحمد ضريف.
- مجموعة من المؤلفين : دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة وتاريخ المغرب. منشورات المختارات ط2011/1

3- المجلات والدوريات

- محمد عابد الجابري : التاريخ والفلسفة. مجلة اقلام العدد 3 1970/
- عبد اللطيف حسني : الملك ملتهم التاريخ. مجلة وجهة نظر عدد مزدوج 40-2009/41
- وجيه كوثري : بعض خصائص الكتابة التاريخية عند العرب. مجلة الفكر العربي عدد 1978/2
- عبد الوهاب بنمنصور : مؤرخو الدول بين الامانة التاريخية والالتزمات الوظيفية مجلة المناهل العدد1987/36
- محمد مفتاح : الرمز – الوظيفة – الفعالية في الكتابة الصوفية مجلة الزمان المغربي عدد 1982/11.
- Dictionnaire des symboles : sus les directions de JEAN CHEVALIER AVEC LA COLLOBORATIONDE ALAIN CGHERRBANT ET ROBET LAFFON

الفهرس

وعندما يكتب الأستاذ مولود عشاق عن تاريخ المغرب وإشكالية المصادر، وهو الذي خبر كثيرا من تلك المصادر عن قرب، وكرع فـي العديد من ثناياها، سـواء في أطروحته لنيـل الدكتوراه أو في ما صدر له بعد ذلك من مقالات ودراسـات، فإنه يضع بذلك أصبعه على مشـكل يؤرق الباحثيـن ويجعلهم وجها لوجه أمام سـؤال جوهري هل يمكن التصديق جملة وتفصيلا بما ورد في المصادر من معطيات؟ وهو سـؤال يقتضي الجواب عنه ضرورة الإنكباب على تلـك المصادر وتفحصها بخبـرة الدارس المدقق المتمعن المدرك لقيمـة الكلمات والإصطلاحات وطرق التعبير، كما يتطلب الأمر إخضاع ماورد بين دفتيها من معطيات للمقابلة والنقد، سـعيا إلى اكتشـاف خط تطور الأحـداث، والبحث في تاريخ القوى التـي غذت ذلك التطور وأمدتـه بعناصر الحيوية والإستمرار .

الدكتور بوجمعة رويان

أستاذ التاريخ المعاصر

بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة

30 درهما

CTP & Impression : Imprimerie Rabat Net Maroc